قد أفلح من تزكى

الإرشاد في الإسلام

أركانه ومبادئه

مختارات من أعمال

عثمان نوري طوپباش



دار الأرقم

بسم الله الرحمن الرحيم

اسطنبول ١٤٣٦هـ/ ٢٠١٥م

إسطنبول: ١٤٣٦هـ/ ٢٠١٥م

مختارات من أعمال عثمان نوري طوبّاش.

الإرشاد في الأسلام أركانه ومبادئه

الإسم باللغة التركية: İslam'da İrşad – Esaslar ve Prensipler

الترجمة للعربية: مجموعة من المترجمين

مراجعة وتصحيح وتدقيق: اياد عمار/ نائل الصعيدي.

جمع وترتيب وتصميم: حسام يوسف

ISBN:٩٧٨٩٩٤٤٨٣٧٧٤٣

Language : Arabic

طباعة وتغليف: مطبعة دار الأرقم

العنوان:

- Address : Ikitelli Organize Sanayi Bölgesi Mahallesi
  Atatürk Bulvarı Haseyad 1. Kısım No: 60/3-C
  Başakşehir - İstanbul / TURKEY

Phone : +90 212 671 07 00 (Pbx)

Fax : +90 212 671 07 48

E-mail : info@islamicpublishing.net

Web site : www.islamicpublishing.net

الإرشاد في الإسلام

أركانه ومبادئه

مختارات من أعمال

عثمان نوري طوباش



دار الأرقم

مُقَدِّمَة

الحمد لله حمدًا كثيرًا طيِّبًا مباركًا فيه، الحمد لله العلي القدير الذي شرَّفنا بنعمة الإسلام والإيمان، وأنزل علينا ألطافه حين خاطبنا بالقرآن، دليل الهداية والغفران؛ والشكر له سبحانه أن جعلنا من المفلحين الموفَّقين، وأكرمنا أن نكون من أمة سيد المرسلين محمد ﷺ الذي كان قرآنًا يمشي على الأرض.

والصلاة والسلام على أشرف خلق الله، المبعوث رحمة للعالمين، أسوتنا في الدنيا، وشفيعنا في الآخرة، وعلى آله الأطهار وصحبه الكرام أجمعين.

وبعد، فإنَّ أولياء الله تعالى -الذين فنوا في محبة الله ﷻ ورسول ﷺ فسعدوا بها واطمأنوا- اقتدوا برسول الله ﷺ.وطهَّروا أنفسَهم من كل ما يبعد عن المولى

ﷻ، وتنطق ألسنتهم بالحكمة وتسرع جوارحهم إلى الخير وتصير إرشاداتهم ومواعظهم قبسا من نور الأنبياء ونفحة من نفحات السماء.

يقول رسول الله ﷺ في الحديث القدسي:

"...**فإذا أحببته: كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها**".[١]

ولذا أطلق على ولي الله الكلمة المشهورة "الإنسان الكامل"؛ أي الإنسان المثالي القدوة الذي أمرَ اللهُ تعالى الناس أن يكونوا على قدمه، لكن ينبغي أن نعلم أن مناقب الأولياء وصفاتهم الشخصية ليست واحدة. فحتى لو كان الولي "كاملا" لكنه لا يكون "مرشدًا كاملا" يرشد الناس إلا إذا كان "كاملًا مكمِّلا" في الوقت ذاته، أي يرتقي بغيره كي يصلوا أيضًا إلى الكمال المعنوي المنشود.

فالمرشدون الكاملون -باتباعهم نبيِ الله ﷺ اتباع محبة وتعظيم- صاروا صفوة الخلق، فأُكرِموا بالقرب

١ انظر: صحيح البخاري، الرقاق، ٣٨.

من الحق تعالى، وثابروا على السير في الطريقة حتى غدوا أهلًا للوعظ والإرشاد، فبعد أن بلغوا مقام القرب من الحق تعالى، رجعوا أدراجهم، فعكفوا على دعوةِ الخَلق حتى يكونوا عبادًا صالحين لرب العالمين، وانشغلوا بتربية الناس تربية معنوية حتى يصيروا من أمة خير المرسلين. وقد أكرم الله تعالى البشرَ -بعد الأنبياء- بهؤلاء الأولياء هُداةً إلى الصراط المستقيم بعد أن ألبسهم لباس التقوى وأنعم عليهم بمعرفته سبحانه.

ومما سبق أيضا نجد أنَّ التعليم والتربية الحقيقية هي أن يعيش الإنسان جميع هذه الصفات، وأن يتحقق بها حالا ومقالا، حتى تصير طبعا له وسجية فيه.

وبناء التربية الحقيقة والإرشاد السليم هذا يقوم على أربعة أركان:

الركن الأول: القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة هما عماد التربية والإرشاد، ولهذا يُعدُّ أساسَ إصلاح النفس وتهذيب الروح تطبيقُ القرآن الكريم والسنة النبوية وتمثُّلهما في كل صفحة من صفحات حياتنا وظهورُهما بجلاء في شخصيتنا.

فعقيدتنا لابد أن تقوم على وفق مذهب أهل السنة والجماعة، وعباداتنا لا تقوم إلا على أسس الشرع الحنيف، وأخلاقنا إنما تستظل بأخلاق السلف الصالحين، وهكذا وفق هذا الفهم نحيا نحن وأهلينا بالإسلام في كل جانب من جوانب حياتنا، ونحاسِب أنفسنا ونزن أعمالنا بقدر بعدنا أو قربنا من منهج الكتاب والسنة.

فالقلوب المطيعة لأمر الله تعالى، الراضيةُ بقضائه، الخاضعةُ لمراده، المواظبة على سنة سيدنا رسول الله ﷺ تصير مجرىً للحكمة والخير والنجاح.

الركن الثاني: الأذكار والأوراد، من استغفار ودعاء وتسبيح، فهذه الأذكار هي التي تحوّل المراقبة من شعورٍ إلى إدراك في قلوبنا، وتطهر النفس وتزكِّيها حتى نؤدي عباداتِنا وطاعاتنا الظاهرةَ بإخلاصٍ وخشوع ووَجْد، وحتى تكتسيَ أخلاقُنا ومعاملاتنا ببهاء الرقة والأدب.

ولأهمية هذا المبدأ وفاعليته في التربية الروحية كان واحدا من أهم الوسائل التربوية التي سلكها الأنبياء والأولياء على امتداد التاريخ.

الركن الثالث: الصحبة، التي تتحد من خلالها حالةُ المريد الروحية مع حالة المرشد الكامل الذي يصحبه، فلما كان الإنسان اجتماعيا بطبعه ولا ينفكُّ عن صحبة الآخرين بحال، وكانت الأحوال والأخلاق مُعدِيةً، أمر الله تعالى الإنسان بمصاحبة الصالحين حتى يتشبه بهم ويقتبس منهم، ولأهمية هذه الصحبة اتخذها النبي ﷺ أسلوباً لتربية أصحابه.

وقد جعل مولانا النقشبند الصحبةَ في موقع المركز من التربية الروحية في قوله: (طريقنا هو طريق الصحبة).

ولا يقصد بالصحبة هنا أن تكون مجلساً للوعظ أو لقراءة كِتاب فحسب، ولكنَّ الصحبة مجلسٌ روحانيٌّ تتنزل فيه الرحمة والسكينة والفيض الإلهي، فهذه المجالس تليِّن القلوبَ وترتقي بالنفوس حتى تتذوق نفحة روحية من معين الله تعالى، ويحصل كل فرد على نصيب روحي يتوافق واحتياجاته، فيكون لهذه الصحبة مذاقا يختلط مع بشاشة الإيمان فلا يمكن وصفه.

ولا يكون لهذه الصحبة أثرها في النفس، ولا تنضج شخصية الفرد -بمخالطة الصالحين وإدراك معاني كلماتهم وتحويلها إلى سلوك حي - إلا بالإخلاص.

الركن الرابع: الخدمة لِعباد الله تعالى ومعاملتهم بالشفقة والرحمة، وكذلك يفعل مع جميع خلق الله تعالى، حيث يشعر المريد بالمسؤولية الإلزامية تجاههم قدر طاقته ووسعه.

ولا تكون هذه الخدمة مقبولة ونافعة إلا إذا ابتغى بها المريد وجه الله تعالى، فيُقبِلُ على خدمة الخلق بقلبٍ ملؤه الإخلاص والرحمة والإيثار، ويبذلُ الخدمة دون انتظارِ مقابلٍ لها أو شكرٍ عليها، بل هو مَن عليه أن يشكر المخدومين أَنهم كانوا سبيلا ووسيلة ينال بها رضا الله تعالى.

وتحتل "**الخدمة**" في الطريق إلى الله تعالى مكانة مهمة، ولذلك تُعتبر واحدة من أهم وسائل التربية الروحية، فبفضل الخدمة صارت بعض الخصال الحميدة -مثل الألفة والإنفاق والإيثار والبذل والعطاء- جزءا لا ينفصل عن شخصية المريد، وتكون الخدمة كذلك سببا لمعونة الله تعالى للعبد ما كان العبدُ في عون أخيه، فيحفظ نفسه بذلك من الانزلاق والضلال.

وأخيرا، فهذه بعض الأصول والآداب التي ينبغي مراعاتها في سبيل الرقي الروحي، وسوف نعرض فيما يلي لتفاصيل هذه الأصول وآدابها.

أسأل الله أن يجعلنا من المهتدين المقتدين بالرسول الكريم محمد ﷺ ، وأن يرزقنا اتباع سنته في الدنيا، ونيل شفاعته يوم القيامة.

آمين...

عثمان نوري طوبَّاش

فبراير ٢٠١٥

أُسكُدار-اسطنبول



الإرشاد في الإسلام

لا يصل العبد إلى حالة من الصفاء يتلقى بها الفيوضات، ويستقبل الحقائق المعنوية إلا بمجاهدات يمر بها القلب حتى ينضج وتجتازها الروح حتى ترق، وهذا النضوج القلبي -عبر تلك المجاهدات- يقتضي سلوك الطرق الموصلة إلى الكمال المعنوي، وقبل ذلك معرفة شروط هذه الطرق ومقتضياتها ليطبقها بدقة.

وفي هذه الطريق الوعرة لابد للسالك من مرشد كامل من أولياء الله تعالى، يكون له دليلاً وزادًا ومرشدًا عبر الطريق.

الإرشاد في الإسلام

إنَّ موضوع الإرشاد من المواضيع المهمة جدًّا في حياة المجتمع الإسلامي، فالمرشد الكامل ركيزة أساسية وعنصر مهم في إصلاح المجتمع، ومهما كان أفراد المجتمع صالحين، فهم في أَمَسِّ الحاجة للمرشد الكامل للاقتداء بالنماذج الحيَّة، كيف لا وقد أمرَ الله نبيَّه ﷺ بالاقتداء، فقال:

﴿**أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ ...**﴾ (الأنعام، ٩٠)

وهذا يدلُّ على عِظَم أثر القدوة الصالحة (المرشد الكامل) في تشكيل الشخصيَّة الإنسانيَّة، ويُرجع الأستاذ عبد الرحمن حبنكة الميداني هذا التأثير إلى عدة أسباب ركَّز عليها الإسلام؛ منها:

١- أن في فطرة الإنسان ميلاً قويًّا للاقتداء.

٢- أنَّ شاهد الحال أقوى من شاهد المقال، فالمثال الحي الذي يتحلَّى بجُملة من الفضائل السلوكيَّة، يُعطي غيرَه قناعة بأن بلوغَها من الأمور التي هي في متناول القدرات الإنسانية.

٣- أن المثال الحي المرتقي في درجات الكمال السلوكي، يُثير في النفوس الاستحسان والإعجاب.[١]

ولذلك عُرِّف الإرشاد الكامل بأنه:

«إحداث تغيير في سُلُوك الفرد نحو الأفضل، عن طريق القدوة الصالحة (المرشد الكامل)؛ وذلك بأن يتَّخذ المسلم شخصًا -أو أكثر ممن يتحقَّق فيهم الصلاح- ليتشبَّه به، فيرى السلوك الذي يسعى إليه واقعا حيا أمام عينيه، قابلا للتطبيق».

فالمرشد الكامل هو المحرِّك والدافع للإنسان للارتقاء بالذات، ومَن جعَل له مرشدًا كاملًا وقدوة عظيمة في صفاتها، فلا بدَّ أن يتأثر به في كلِّ صفاته، فالمرشد الكامل المؤثر مثال حي للارتقاء في درجات الكمال، فهو دائمًا يطلب الكمال ويطلب المعالي، فهو

---

١ أُسس الحضارة الإسلامية؛ ص٨٠.

بذلك مثارٌ للإعجاب والتقليد من الناس؛ لأن التأثُّر بالأفعال والسلوك أبلغُ من التأثر بالكلام والأقوال.

إذْ كانت سيرة النبي ﷺ وحياته الواقعيَّة -بكلِّ ما فيها؛ من تجارب الإنسان، ومحاولات الإنسان، وضَعف الإنسان، وقوة الإنسان- مختلطة بحقيقة الدعوة السماوية، مُرتقية بها خُطوة خطوة؛ كما يبدو في سيرة أهله وأقرب الناس إليه، فكانت هي النموذج العملي للمحاولة الناجحة، يراها ويتأثر بها مَن يريد القدوة الميسرة، العملية الواقعيَّة، التي لا تعيش في هالات ولا في خيالات.

إنّ المؤمن الذي يتدرج ويرتقي في طريق الروحانية، يجد الكثير من التجليات والفيوضات، فهو يبحر بقلبه في بحرٍ لجي تتقلب عليه نواميس الكون، من الهدوء والسكونٍ إلى العاصفة والأمواج العاتية، ومن بريق النجوم الهادية إلى برق الرعود الهادرة، وسفينة قلبه في ذلك البحر الهادر تحتاج إلى قبطان خبير وربان حصيف يقودها في خضم هذه الأهوال إلى شاطئ النجاة، ويبلغ بها ضفة الأمان، عابرًا بها بين العواصف والأمواج، متجاوزًا بها الأنواء والظلماء، وكل عوامل الإفناء في غياهب المحيط.

ومثل هذه التجليات والإشراقات لا تُرى في بداية الطريق، وإنما تبدأ هذه المظاهر -التي لا تُعرف أرحمانية هي أم شيطانية- تتراءى للسالك مع ولوج عرض هذا المحيط، وتبدأ بعض الأحوال والتقلبات المعنوية التي تختلف من فردٍ لآخر مثل القبض والبسط[٢]، لذلك يحتاج السالك إلى هداية المرشد الكامل العارف من أجل تحديد هذه الأمور واتخاذ الاحتياطات اللازمة.

إن أصحاب الهِمم العالية هم الذين يسعون ليكونوا مرشدين كاملين، فالإسلام دين القدوة، وأعظم قدوة في الإسلام الأنبياء، وفي مقدمتهم نبيُّنا محمد ﷺ، ولذلك جعَله الله لنا أُسوة وقدوة، وأمرنا باتباعه وجعل اتباعه دينا، فقال:

﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ..﴾ (الأحزاب، ٢١)

يقول العلامة الطاهر ابن عاشور في تفسير هذه الآية: «في الآية دلالة على فَضْل الاقتداء بالنبي ﷺ وأنه الأسوة الحسنة لا مَحالة.»[٣]

---

٢ القبض والبسط: همـــا حالتان متضادتان عند الســـالك. والقبض هو الضيق المعنوي نتيجة المشاعر المرعبة وما شابهها، أما البسط فهو الانشراح المعنوي بالأمل.

٣ التحرير والتنوير، ٢١/ ٢٢٣.

وقال الإمام ابن كثير: «هذه الآية أصل كبيرٌ في التأسِّي برسول الله ﷺ في أقواله وأفعاله وأحواله.»[٤]

فالسير على الطريق المستقيم يوجب على المؤمن أن يضع نفسه تحت نظام تربوي محكم ومتكامل، وليس ثمة أكمل من سُنة وسيرة النبي المصطفى ﷺ في حياته العامة مع الخلق والخاصة مع الله تعالى، فعلى كلِّ امرئ أن يسعى بحسب طاقته وقدرته في تحصيل ما يستطيع من سُنته ﷺ معرفة وتطبيقا، والامتثال لسيرته التي حوت كل المواقف التي يمكن أن يواجهها المسلم في صبره وشكره وعسره ويسره، في تبسمه للبلايا وتخطيه للرزايا وتعاليه على الدنايا وتواضعه للخلائق وتساميه عن النقائص وتفرده بالخصائص.

وغيرها من الصفات النبوية التي تملأ دنيا المؤمن، والتي يقوم عليها منهج ورثة الأنبياء من العلماء والعارفين والأولياء والمرشدين الكاملين، يتوارثونها كابراً عن كابر، ويورثونها للسالكين تدريباً وتعليماً ومجاهدة وفيضاً، فليحرص كل سالك على صحبة هؤلاء المرشدين الأولياء لتنعكس عليه الصفات

٤ تفسير ابن كثير، ٣/ ٨٨.

والأخلاق النبوية كما ينعكس نور الشمس على الأرض عبر القمر، وهؤلاء المرشدون هم الأقمار التي تعكس الأنوار النبوية على القلوب البشرية.

وقد خلق الله تعالى الإنسان على فطرة الإسلام، وجاء التصوف لينطلق بهذه القاعدة الفطرية نحو المعالي، ويستثمر الإمكانات المتاحة لدى المسلم مهما كانت درجة الاستعداد قليلة أو كثيرة، فأهل الطريق الصوفي إنما يقومون على تنمية هذه الاستعدادات، ورعاية هذه البذرة في أرضها، فكأن هذه الفطرة وما فيها من استعدادٍ معدن مدفون في أعماق الأرض، فعلى قدر الجهد الذي يبذله المنقِّبون في استخراجه تأتي النتائج، وعلى قدر المسبار الذي يغوص في أعماق الأرض بحثًا عن النفط، يتدفق هذا النفط جودة وغزارة.

والمرشد الكامل هو الذي يُبرز هذه الجوهرة إلى الوجود عبر استخدامه المسبار المعنوي ثم يجتهد للارتقاء بهذه الفطرة وتنمية استعداداتها، وكما أنه من الضروري أن يغوص المسبار إلى أن يصل إلى تلك المنطقة التي تحتوي على النفط كي يخرج إلى الأعلى، وأن يكون المسبار قويًّا لكي لا يتحطم إذا اصطدم

بصخرة كبيرة، فكذلك من الضروري جدًّا أن يكون المرشد الكامل الذي يخضع المسلم لتوجيهاته المعنوية مقتدرًا وعارفًا، وثمة بعض المعايير المحددة لهذا الأمر، ونورد فيما يلي لمحةً عن هذه المسألة المهمة، حيث إنه يمكن معرفة المرشد الكامل الحقيقي عبر هذه المعايير المحددة والصفات الثلاث الآتية:

الصفة الأولى: الاتباع التام للكتاب والسُنة.

فحياة المرشد الكامل تطبيق عملي لمعنى التأسي بالنبي ﷺ واتباعه ومحبته، والمرشد لابد أن يطبق المنهج الرباني الذي جاء به القرآن، وذلك بالعيش بالقرآن، وعلى القرآن، وللقرآن؛ لأن المرشدين هم «ورثة الأنبياء»، بمعنى أنهم هم المؤتمَنون على شريعة الأنبياء برسالتها وأخلاقها وأهدافها بين الناس إلى يوم الدين، فتكون أفعالهم وأقوالهم وأعمالهم وخطراتهم نابعة ومستمدة من كتاب الله ﷻ وسنة النبي ﷺ ، فيستقيم سلوكهم وتظهر أفئدتهم وترق أرواحهم حتى يكاد لا يقاربهم الهوى والنفس في أفعالهم وأقوالهم وأحوالهم، ولا يدنو من هذه الرابطة المعنوية بين المرشدين والسالكين شيء من الحياة النفسانية؛ بل هي فيوضات روحانية نورانية.

الصفة الثانية: تذكيرهم بالله ﷻ من خلال أقوالهم وأحوالهم

حيث نجد أن أولياء الله تعالى يذكِّرون من حولهم بالله تعالى دائمًا كل حين، لأنهم يتعرضون لتجليات أسماء الله تعالى، فتنعكس الصفات الجمالية على أخلاقهم، فحين سأل الصحابة الرسول ﷺ:

«مَنْ هم أولياء الله؟»

أجابهم:

«**الذين إذا رُؤُوا ذُكر الله** ﷻ» (الهيثمي، مجمع الزوائد، جـ١٠، ٧٨)

وهؤلاء الأولياء من المرشدين الكاملين لا يحتاج مَنْ صحِبهم ولا مَنْ رآهم إلى طول الصحبة، ولا إلى درس وموعظة وخطبة، إنما التأثر بهم يتأتى بمجرد النظر إليهم؛ بل بمجرد الوجود في محيط معيتهم، كأنهم المادة المشعة التي لا تتوقف عن إرسال إشعاعاتها لما حولها مخترقة كل الحواجز؛ دون إجراء أي معادلات كيميائية أو فيزيائية، فقد تشبعوا بإشعاعاتهم تلك من نور الله ﷻ ومن معية رسول الله ﷺ، ففاضت فيوضاتهم على مَنْ حولهم.

فقد تخلق أولياء الله تعالى بأخلاق الله ﷻ واقتبسوا من نوره سبحانه، فجعل الله لهم نصيبًا من أسمائه وصفاته:

فاسمَا «الرحمن» و«الرحيم» من أشهر أسماء الله تعالى، وأولياء الله تعالى على درجة عالية من الرحمة.

والمولى ﷻ «كريم»، وأولياء الله تعالى كرماء، ويسعدون بإكرام الناس.

والله ﷻ «غفور»، والأولياء أيضًا يغفرون الأخطاء والنواقص.

والخالق جلَّ في علاه «حليم»، والأولياء أهل الحلم.

لذا فهم يختلفون عن الناس اختلافًا كثيراً، فقلوبهم للَّه ﷻ أخشع، وعبادتهم للَّه ﷻ أقوم، وأعمالهم للَّه ﷻ أخلص، ودعاؤهم للَّه ﷻ أسمع، ومقامهم عند الله ﷻ أرفع.

هؤلاء هم الذين ساروا على خطى الحبيب ﷺ فكان لهم نصيب من أخلاقه وشمائله، فهم يحملونها إلى كل مكان يحلون فيه، فينشرون فيه أريج النبوة وأنوارها، بعد أن صارت صدورهم فواحات بهذا الأريج، وصارت قلوبهم مرآة لهذا النور.

على عكس صحبة أهل المعاصي، فلهم ثقل معنوي ينوء به كاهل من يصحبهم من المؤمنين الصادقين، وسرعان ما يشعرون بوطأة هذا الصحبة الفاسقة، بينما تجد روحه السكينة والطمأنينة في كنف الظلال النبوية.

إنه لضرب من اللذة المعنوية لا يبلغها الخيال في صحبة المؤمن للنبي ﷺ نفسه؛ حين تكون في معيته وجواره وتحت ناظريه وبين يديه، ويتوجه خطابه الكريم إليك، إنها الجنة بعينها.

ومَنْ أراد القرب من هذه المنزلة فعليه بالمرشد الكامل، صحبة ومعية وجواراً والتزاماً ومحبة، فالمرشد الكامل هو ذلك الإنسان الذي جعل من النبي ﷺ قدوته وأسوته وقائده في كل أفعاله وخطراته وخلجاته، وحتى في أنفاسه، فورث من علمه وأخلاقه، وصار مرآة لنوره وروضة لروحانيته، وانعكاسًا لهيبته، ومصدرًا لفيوضاته.

ومَن مِن المريدين يتحمل قلبه ذلك الفيض النبوي، إنَّ هول المفاجأة التي تصطدم بها روح المريد عند بدايته مع المرشد الكامل، هي كالصعقة الكهربائية الشديدة من تيار كهربائي متدفق، يزلزل كيانه، ثم يحمله روحاً مرفرفة، وقلباً محلقًا في الآفاق المعنوية.

الصفة الثالثة: التعيين المعنوي.

إنه لا يكفي اجتماع مجموعة من الأشخاص لتعيين مرشد؛ لأن هذه الوظيفة يعيِّنها ويحدِّدها مرشد كامل مجاز من تلك السلسلة الصحيحة الموصولة بالنبي ﷺ، فإذا لم يتوفر مثل هذا التعيين فإن السلسلة تنقطع هنالك، لهذا السبب حين لا يجد المرشدون الكاملون شخصًا صالحًا كي يخلفهم، لا يستطيعون تعيين مَنْ يكمل طريقهم، وقد يكون المعيَّن أحيانًا شخصًا واحدًا فقط، وأحيانًا أخرى مجموعة من الأشخاص كما كان الحال مع الشيخ خالد البغدادي حين ترك من بعده الكثير من المرشدين، ولهذا الأمر حكمة لا يعلمها إلا الله تعالى.

- **الحاجة إلى مرشد كامل**

تشتدُّ الحاجة إلى المرشد الكامل كلَّما ابتعد الناس عن الالتزام بقِيَم الإسلام وأخلاقه وأحكامه، فالله ﷻ حذَّر من مخالفة فعل المسلم قوله مما ينزع عنه صفة القدوة بين الناس، فقال سبحانه:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ. كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ (الصف، ٢ - ٣)

فلكي يكون العبد قدوة كما يريده الله تعالى، ويصل إلى حالة من الصفاء يتلقى بها الفيوضات، ويستقبل بها الحقائق المعنوية لابد من مجاهدات يمر بها القلب حتى ينضج وتجتازها الروح حتى ترق، وهذا النضوج القلبي- عبر تلك المجاهدات- يقتضي سلوك الطريق الموصلة إلى الكمال المعنوي، وقبل ذلك معرفة شروط هذه الطرق ومقتضياتها ليطبقها بدقة.

وفي هذا الطريق الوعرة يحتاج السالك إلى مرشد كامل من أولياء الله تعالى، يكون له دليلاً ونبراسًا وزادًا ومرشدًا عبر الطريق؛ وهؤلاء المرشدون لا يبلغون هذه الدرجة إلا بالصفات الثلاثة المذكورة فيما سبق.

فإن من يريد أن يعبر ذلك الطريق المعنوي في سبيل الوصال مع المولى، يجب عليه أن يسعى للقاء مرشد كامل أولًا، ثم يسير في الطريق برفقته، ووفق تعليماته وإرشاداته؛ وإلا فإنه سيضل الطريق في تلك الرحلة المليئة بالمخاطر، وسيكون مصيره الهلاك.

ولا يخضع السالكون لكثير من الامتحانات الصعبة الشاقة في بداية طريقهم، لكنهم كلما أوغلوا في هذه

الطريق، تعرضوا للأحوال المختلفة مثل القبض والبسط، والظهورات والكشوفات التي تختلف من فرد لآخر، والرؤى التي لا تُعرَف رحمانيتها من شيطانيتها؛ لذلك ثمة حاجة لإرشاد مرشد كامل عارف مؤهل يحدِّد كل حال من تلك الأحوال ويبيِّنها لمريده.

ولا بد أن نذكر هنا أن تعلُّمَ الدين الإسلامي وتعليمه -منذ ظهوره وحتى يومنا هذا- لم يكن قائمًا على الجانب النظري فحسب، بل كان دينًا عمليًا قدَّم نظامًا متكاملًا يعيش الإنسان حياته على أساسه، فكثير من الناس لا يتعملون الدين من خلال قراءة الكتب، بل يتعلمونه بحضور مجالس العلماء والصالحين والاستماع إليهم ومجالستهم،والاقتداء بهم، فالإنسان بطبعه يُعجَب بصاحب الخُلق الرفيع -الذي تتجسد في سلوكه وأحواله الحقائق المجردة التي جاء بها الدين- أكثر من إعجابه بتلك الحقائق نفسها، فتلك التعاليم التي يتلقونها من القدوة الحية أمامهم تُحفر في أعماقهم وتترك أثرًا لا يمحى في قلوبهم.

فانتقال الدين من جيل إلى آخر دينًا تطبيقيًا عمليًا خير من تعلمه وانتقاله بالتدوين، فتعلم الدين من السطور

يكون سببًا في ظهور الاختلافات والفروقات عند تطبيقه، وهذا ما جعل أولياء الله تعالى الذين يَحيون دينَ الإسلام بمحبة عظيمة يلعبون دورًا كبيرًا في انتقاله من جيل إلى آخر دون أن يُحرَّف كغيره من الأديان.

وكذلك التربية الصوفية الضرورية لنضج الإنسان لا تكون بقراءة الكتب فحسب، فالكتب وإن كانت ضرورية ونافعة، لكن لا بد من تطبيق ما جاء فيها عمليًا، ولا بد من وجود مرشد مؤهَّل قدوة مُطَّلع على دقائق ذاك الطريق المعنوي، من أجل حل المشاكل التي قد يتعرض لها المريد.

فالطبيب لا يستطيع أن يجري عملية بقراءة كتاب عن الطب، والحياة المعنوية ليست حياة نظرية، بل حياة عملية تطبيقية إلى جانب حقائقها المجردة؛ لذلك فإن تطبيق هذه الحياة يُوجِب الخضوعَ لتدرُّبٍ مشابه لما نراه بين الصانع وعامله، والتعلمَ بمشاهدة أهل الله وأحبابه أو الاستماع لإرشاداتهم دون حاجة لقلم أو دفتر. والمرشدون الكاملون الذين يعدون هداة وقدوة في الحياة الصوفية هم من يقوم على تربية المريد هذه التربية الصوفية العملية.

لذلك لا يمكن الحديث عن حياة صوفية مستقيمة دون ارتباط الفؤاد بمرشد كامل، وأما أولئك الذين يدَّعون التصوف دون الخضوع لتربية معنوية على يد مرشد كامل، فسرعان ما يكبو جوادهم فلا يستطيعون حيلة ولا يهتدون، بل إنهم لا يدركون وقوعهم في الأخطاء لغياب النذير الناصح، فتراهم يتَّبعون أهواء نفوسهم وغوائلها وحيل الشيطان ومكائده.

ولحاجة العباد إلى الأولياء المرشدين في هذه الدنيا أكرم الله تعالى عباده بهم ليكونوا ورثة للأنبياء في وظيفتهم لهداية البشرية، ولا شك أن هذا مظهر من مظاهر رحمته جل جلاله بعباده ولطفه ورأفته.

يقول رسول الله ﷺ:

"لا تزال طائفة من أمتي قائمة بأمر الله، لا يضرهم من خذلهم أو خالفهم، حتى يأتي أمر الله وهم ظاهرون على الناس" [٥]

"لا تزال طائفة من أمتي يقاتلون على الحق ظاهرين إلى يوم القيامة" [٦]

---

٥ مسلم، الإمارة، ١٤٧.

٦ مسلم، الإيمان ٢٤٧، الإمارة ١٧٣.

وهذه الطائفة هم المرشدون في العلوم الظاهرة مثل العلماء الصالحين، والفقهاء، والمفسرين، والمحدثين؛ والمرشدون في العلوم الباطنة وهم أولياء الله تعالى الذين يدلون الناس على الصراط المستقيم ويصلحون بواطنهم، ويطهرون نفوسهم.

وينبغي هنا أن نتنبه إلى أن المرشد الكامل إنما هو واسطة في طريق الوصال مع الحق لا غاية. لذلك فإنه من عظيم الخطأ أن ننظر إلى المرشد الكامل كما ينظر النصارى للراهب، فالعبد في النصرانية لا يستطيع أن يتوجه إلى ربِّه بنفسه دون راهب، أما المرشد الكامل فوظيفته أن يهيئ العبد ليكون في معية الله تعالى بنفسه متى شاء، وأن يعمل على إعداد القاعدة المعنوية لهذا كله، وذلك بتخلية القلب من الرغبات النفسانية، والأهواء الفانية، وجعله يفيض بمحبة الله تعالى.

❁

- **بعض التنبيهات المهمَّة:**

إن المرشد الكامل عبد للَّه ﷻ لكنه يملك خصائص ومزايا قد أكرمه الله تعالى بها دون غيره من العباد، فلهذا

يجب التأدب معه، وإظهار الاحترام له، والاستفادة من روحانيته، لكن دون أن يخرِج هذا الأدب والاحترام والاستفادة عن الحدود الشرعية حتى لا يقع المسلم بين سندان الإفراط ومطرقة التفريط؛ لأن الأنبياء والصالحين كلهم عبادٌ للّٰه تعالى أولًا وآخرًا، فهم قد نالوا حظًّا وفيرًا من بحر العلم والحكمة والمعرفة بالقدر الذي وهبه الله تعالى لهم، وقد يأتي زمان تُفتح أمام أعينهم وقلوبهم أسرار العالَمين، وقد يأتي زمان لا يبصرون شيئًا أمامهم.

ويقول الشيخ سعدي في كتابه «كولستان»:

سأل أحدُهم سيدنا يعقوب عليه السلام:

«يا أيها النبي الحكيم، يا صاحب القلب المنوّر! لقد وجدت ريح يوسف في ثوبه الذي أتوك به من مصر، لكن لمْ ترَ ابنك حين أُلقي وحيدًا في البئر القريبة منك؟»

فأجابه سيدنا يعقوب عليه السلام:

«إن النصيب الذي نلناه من الله تعالى في هذا الأمر هو كوميض البرق، لهذا قد تظهر لنا الحقائق واضحة أحيانًا، وتغيب عنَّا أحيانًا أخرى».

وحين سُئل النبي ﷺ يومًا عن الروح ولم يعرف الجواب، قال للسائل -وهو على يقين أن الوحي سيأتيه-: «غدًا أجيبك!»، لكنه لم يتلفظ بكلمة «إن شاء الله».

بيد أن الوحي لم يأته في اليوم التالي وغاب عنه خمسة عشر يومًا، وبقي نور الخلق ﷺمحجوبًا عن الإجابة، وفي النهاية نزلت عليه الآية الآتية تنبيهًا له ولأمته من بعده:

﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَدًا. إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللهُ﴾ (الكهف، ٢٣-٢٤) [٧]

وحين نعلم أن هذا المعيار يُطبَّق حتى على رسول الله ﷺ، فمن بابٍ أولى أن يشمل العباد جميعًا دون استثناء. ومن هذا المنطلق لا يمكن القول إن دعاء ولي من أولياء الله تعالى سيُقبَل حتمًا، أو سيُشفى المريض الذي يقرأ هذا الولي عليه؛ لأن الأساس هو توافق إخلاص الطرفين مع الإرادة الإلهية، إذ لا بُدَّ أن نضع في الحسبان

٧ انظر: ابن كثير، ٣، ٨٣؛ الألوسي، ١٥، ٢٤٧.

أن الاستغاثات والأدعية جميعها قد لا تُقبَل فلا تتحقق في هذه الدنيا مباشرة، بل تتجلى رحماتها في الآخرة؛ لأنها مرتبطة بإرادة الله تعالى وحكمته.

ولابد أن نذكر هنا أمرًا آخر لا يقل أهمية، وهو أن لكل نبي وولي طبيعةً وشخصية يختلف بهما عن غيره، لهذا قد لا تجد صفة بارزة في أحدهم تظهر في المستوى نفسه لدى الآخر، فمن الخطأ إذن توقع تشابه الطبيعة والسلوك فيهم جميعًا.

فالقرآن الكريم يُعلِّمنا أن سيدنا موسى عليه السلام قد أُعطي علمًا لم يكن لدى سيدنا الخضر عليه السلام، وأن سيدنا خضر عليه السلام قد أُعطي علمًا لم يكن لدى سيدنا موسى عليه السلام، وكما أن الشيخ الجيلاني لم يكن مثل مولانا الرومي كذلك لم يكن مولانا مثل شيخنا الجيلاني، وذلك بسبب اختلاف ما وُهِب كلٌ منهما، وما يُطلب منهما من خدمات وما يُكلّفان به من وظائف، لكن لا شكّ أن الغاية الأساسية لهم جميعًا هي عبودية الله تعالى ومعرفته؛ لأن الطرق المؤدية إلى رضوان المولى عز وجل كثيرة كثرة أنفاس الخلائق.

ولا بُدَّ أن نذكر هنا حقيقة مهمة، وهي أن العباد كلهم باستثناء الأنبياء لا يأمنون مكر الله تعالى، فالعبد حتى لو بلغ القمة، فإنه يبقى معرَّضًا لخطر الانزلاق والسقوط في الهاوية، وأبلغ مثال على هذا بلعام بن باعوراء الذي اشتهر بصلاحه وعلمه، لكنه لما أتَّبع نفسه هواها خسر الدنيا والآخرة، ويخبرنا القرآن الكريم عن هذه الحادثة:

﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانْسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ. وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ﴾ (الأعراف، ١٧٥-١٧٦)

ولهذا السبب، مهما كان العبد في مقام معنوي أو مرتبة عالية، فإن نفسه التي بين جنبَيه دائمًا تنصب له الكمائن، وتنتظر الفرصة المناسبة كي توقع قلبه في الخسران، ولذلك كله كان سيدنا محمد ﷺ يلتجئ إلى ربه تعالى قائلاً:

«اللَّهم رحمتَك أرجو، فلا تكلني إلى نفسي طرفة عين، وأصلح لي شأني كله، لا إله إلا أنت» (أبو داوود، الأدب، ١٠٠-١٠١)

ويحيا أولياء الله تعالى دائمًا حياتهم في ظلال هذا الحديث الشريف، فلا ينخدعون أبدًا بقول بعضهم: «تم لنا الأمر»؛ لأن مَنْ يتوهم مثل هذه الأوهام حتى لو أنهى السير والسلوك، فاعلم أنه في منتصف الطريق، أما الذين يقولون: «لا ندري ما يفعل الله بنا» ويدركون عيوبهم ونقصانهم، ويكونون في حالة عجز والتجاء، فأولئك يترقون في مدارج الروح.

ومع أن سيدنا محمدًا ﷺ -وهو خير الأنبياء- قد وصل إلى أعلى وأكمل درجات العبودية بين الخلق جميعا، فقد كان يُحيي الليل حتى تتورم قدماه ولم يترك ذلك أبدًا، وحين سألته السيدة عائشة عن ذلك، أجابها:

«**أفلا أكون عبدًا شكورًا**» (مسلم، المنافقون، ٧٩)

ووفقًا لرواية أزواجه الطاهرات كان الرسول الكريم ﷺ ينشغل بالحمد والثناء أكثر حينًا بعد حين بعد أن نزلت عليه آية:

﴿**فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا**﴾ (النصر، ٣)

وعلى هذا الأساس لا يمكن أبدًا لأي عبد من العباد -مهما كان مقامه عند الله تعالى- أن ينعتق من مسؤولية

العبودية، أو أن يُعفى من بعض التكاليف الشرعية، أي إن الحلال والحرام والفروض والواجبات والسُنن وجميع القوانين والتكاليف الإلهية ستبقى أمانة على كاهل من يسير في طريق العبودية، ولن تُرفَع عنه إلى أن يلقى الموت، ولهذا السبب يسعى المرشد الحقيقي لكي يعيش عمره كاملاً وهو يتَّبع أمر الله تعالى الذي يقول:

﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ. وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ﴾ (الحجر، ٩٨-٩٩)

ومثل هؤلاء المرشدين في طريق الروحانية لا يطلبون أيَّ طلب ولو كان صغيرًا مقابل ما يقدمونه من خدمات للخلق، وحتى إنهم لا ينتظرون شيئًا مقابل عبوديتهم لربهم جل وعلا، إذ إنهم يعلمون أن مَنْ ينتظر شيئًا مقابل العمل الصالح، فسيُنقص من قيمة عمله ودرجته، ومن هذا المنطلق أعطى سيدنا علي وسيدتنا فاطمة رضي الله عنهما طعام إفطارهما وهما صائمان للمسكين الذي أتاهم عند الإفطار في اليوم الأول، ولليتيم في اليوم الثاني، وللأسير في اليوم الثالث، واكتفيا بالإفطار على الماء لثلاثة أيام متتالية، وكان ردُّهما على شكر الفقير لهما:

﴿إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللهِ لَا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا﴾ (الإنسان: ٨-١١) [8]

والخلاصة، إن المرشد الحقيقي هو ذروة العالم الروحاني الذي يتابع ما كُلِّف به الأنبياء من مهمة التربية والتزكية، لكونه شخصية مثالية، وفي الوقت ذاته، وصل أولياء الله تعالى هؤلاء إلى درجة الإحسان في إيمانهم، فعرفوا الله تعالى وصفاته الحسنى، ولهذا وهبهم الله سبحانه من لدنه العلم والحكمة والمعرفة وسائر النعم الأخرى، بيد أنه لم يصل أحدهم إلى الدرجة التي وصل إليها الصحابة، وبالطبع لم يصل الصحابة ﵃ إلى مرتبة الأنبياء، والأنبياء أنفسهم لم يصلوا إلى مقام سيدنا محمد ﷺ، وحين نتكلم عن سيدنا محمد ﷺ نجد أنه هو أيضًا مجرد عبدٍ للّه ورسوله.

وبناءًا على هذه الحقيقة يجب الحذر من المبالغة في تقدير الناس زيادة عن الحد الشرعي، وينبغي معاملتهم باعتدال حسب مقامهم، فالتابعي أويس القرني والإمام الأعظم أبو حنيفة لا يمكن أن يصلا إلى درجة الصحابة

٨ انظر: الواحدي، ص٤٧٠؛ الزمخشري، جـ٤، ١٩١-١٩٢.

أبدا، ولكن ثمة بعض الغافلين أحيانًا يقدِّرون بعض شيوخهم أكثر من الصحابة، وحتى أكثر من رسول الله ﷺ، ويحسبون أنهم بذلك يحسنون صنعا وهم في الحقيقة بفعلهم هذا لم يرتكبوا خطأ فحسب، بل وقعوا في الضلالة، وهذه الضلالة إفراط غريب لا يناقض إرادة المولى ﷻ فحسب بل يُبعد المرء عن الحقيقة أيضًا، لهذا السبب كان رسول الله ﷺ يكره المدح والثناء دون سبب جائز؛ خوفا مما تورثه في النفس من كبر وآفات، وفي مثل هذه الحالات كان يقول قاصدًا المدَّاحين:

«**احثوا في وجوههم التراب**» (أحمد بن حنبل، مسند، جـ٦، ٥)

فالمرشد الكامل مهما بلغ من مقام عند ربه يظلُّ عبدًا لله تعالى، فنجلُّه ونحبه لكن دون مبالَغة وإفراط.



أركان ومبادئ الإرشاد

الركن الأول

اتباع القرآن الكريم والسنة الشريفة

كان الصحابة الكرام ﭬ وبمقتضى القرآن الكريم والسنة الشريفة يعدّون إقامة أركان الدين سعادة ومتعة لا تعدلها متعة، فكانت كل الآيات النازلة كأنها ضيافة من السماء، وكل جهودهم كانت متوجهة لإدراك القرآن الكريم على أكمل وجه للعيش في هذا الكون في ظلال النموذج الرباني.

الركن الأول: اِتباع القرآن الكريم والسّنة الشريفة

إن الإرشاد الكامل هو سعيٌ لتنظيم الحياة على منهاج القرآن والسنة، والمرشد الكامل هو من جعل القرآن والسنة هاديًا له في حياته، فما وافقهما عمل به، وما خالفهما ابتعد عنه، قدوته في ذلك الصحابة الكرام في عصر السعادة.

لقد وجد عصر السعادة في ظلال القرآن والسنة، وهما كما كانا سبب حيوية هذا العصر وبريقه، فإنهما لا يزالان يتمتعان بنفس التأثير والفعالية.

فقد كانت أولى اهتمامات الصحابة ﵃ فهم وتعلّم وإدراك كتاب اللّه تعالى وأسراره الحكيمة، والعمل بمقتضاه، لأنهم وجدوا لذة الحياة في تلاوة القرآن والإنصات إليه والعيش بمقتضاه.

فالأصحاب الكرام ﵃ عاشوا مع القرآن الكريم وكرسوا حياتهم خدمة له وعملا به، فهم عاشوا مع القرآن، وللقرآن، وبالقرآن.

ومن أجل العيش بمقتضى آيات اللّٰه ﷻ، هاجروا وتركوا أوطانهم وأموالهم وضحّوا بكل ما يملكون.

لذلك اجتهدوا للعيش في ظلال القرآن الكريم وتمسكوا به والتزموه حتى في أشد الأوقات خطراً.

لقد كان الصحابة الكرام رضي الله عنهم وبمقتضى القرآن الكريم والسنة الشريفة يعدّون إقامة أركان الدين سعادة ومتعة لا تعدلها متعة، وكانت كل الآيات النازلة كأنها ضيافة من السماء، وكل جهودهم كانت متوجهة لإدراك القرآن الكريم على أكمل وجه للعيش في هذا الكون في ظلال النموذج الرباني.

وبما أنّ القرآن الكريم هو مصدر الشريعة الإسلامية الأول وأصلها الذي تعتمد عليه، فلا يمكن التخلي عن المصدر الأساسي الثاني للشريعة، والذي نص القرآن الكريم نفسه على وجوب الأخذ به، أي إن حجية السنة مستمدة من القرآن الكريم ذاته وذلك فى مواطن كثيرة من كتاب الله تعالى، منها قوله سبحانه:

﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ (آل عمران، ١٣٢)

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ...﴾
(محمد، ٣٣)

فقد أوجبت الآيات طاعة النبي ﷺ، تماما كما أوجبت طاعة الله تعالى.

وقوله تعالى:

﴿مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ وَمَنْ تَوَلَّى فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا﴾ (النساء، ٨٠)

فقد جعلت الآية طاعة الرسول ﷺ من طاعة الله عزّ وجلّ.

لقد أدرك إنسان عصر السعادة هذه الحقيقة واجتهد ليقيم حياته كلها حسب السنة المطهرة.

قال جابر رضي الله عنه للشباب الذين حضروا إليه لتعلم العلم: «كان رسول اللّه ﷺ بين أظهرنا، وعليه ينزل القرآن، وهو يعرف تأويله، وما عمل به من شيء عملنا به».[٩]

قال أمية بن عبد اللّه لعبد اللّه بن عمر رضي الله عنهما:

إنا نجد صلاة الحضر وصلاة الخوف في القرآن، ولا نجد صلاة السفر؟ فقال له عبد اللّه رضي الله عنه:

---

٩ انظر: مسلم، الحج، ١٤٧/ ١٢١٨.

«إن اللّه بعث إلينا محمداً ﷺ ولا نعلم شيئاً، فإنما نفعل كما رأينا محمداً ﷺ يفعل».[10]

وهذا المعنى قد أكّده القرآن الكريم حيث يقول اللّه ﷻ:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ (الحجرات، ١)

ورأى التابعي الكبير سعيد بن المسيب رجلاً يصلي بعد الفجر أكثر من ركعتين يكثر فيها الركوع والسجود، فنهاه، فقال له يا أبا محمد: أيعذبني اللّه على الصلاة؟ قال:

«لا، ولكن يعذبك اللّه على خلاف السنة».[11]

وكثيرا ما ورد عن النبي ﷺ ما يؤكد وجوب العمل بسنته، فعن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ:

«إني قد تركت فيكم شيئين لن تضلوا بعدهما: كتاب الله وسنتي...»[12]

---

١٠ انظر: ابن ماجه، إقامة ٧٣/ ١٠٦٦.

١١ سنن الدارمي، ١، ٤٠٤/ ٤٥٠.

١٢ الحاكم، المستدرك على الصحيحين، ١؛ ١٧٢، رقم ٣١٩.

ثم أقوى دليل وجوب اتباع سنته ﷺ، إجماع الصحابة وعلماء الأمة من بعدهم على ذلك.

والسر من جعل القرآن والسنة مصادر الإسلام الأساسية أنّ الله ﷻ قد أودع فيهما كل ما نحتاجه من تشريع، فما من شيء يؤثر في علاقتنا بالله ﷻ تأثيراً إيجابياً إلا أوصانا به النبي ﷺ، وما من شيء يبعدنا عن الله ﷻ إلا حذرنا منه النبي ﷺ.

من هنا نجد التصوف الحق والإرشاد الكامل إنما قاما على رعاية هاتَين الأمانَتين المقدَّستين كما ينبغي؛ وفهم ما جاء فيهما من الأحكام والتوجيهات الإلهية والنبوية فهمًا نابعًا من القلب، بغية العمل بها والحياة في ظلالها.

فالإرشاد أسلوبٌ تربوي يُعلِّم المسلم تطبيقَ الأعمال القلبية الواردة في الكتاب والسنة مثل الإخلاص والتقوى والزهد والخشوع والتوبة والرضا، ويحذره من الأمراض النفسانية مثل الرياء والعُجب والكِبر والغيبة والحسد. وليس الإرشاد طريقة الوصول إلى الكشف والكرامات بمجموعة من الرياضات والمجاهدات.

يقول جنيد البغدادي قدس الله سرَّه:

«إذا رأيتم الرجل يطير في الهواء فلا تغتروا به حتى تعرضوا أمره على **الكتاب والسنة**، وإلا فإنه استدراج [لا كرامة]».

يقول مولانا جلال الدين:

«إنني -ما دامت الروح محبوسة في هذا البدن- عبدٌ لما جاء في القرآن وسالكٌ درب محمد ﷺ، ... ومن نقل عني غير هذا، فقد آذاني».

فنجد أن مصدر الفيوضات التي تلقَّاها مولانا جلال الدين مثل غيره من أولياء الله تعالى إنما هو القرآن والسنة، فيقدِّم مولانا جلال الدين نفسه «عبدًا للقرآن، وخادمًا للنبي ﷺ». أي إنه يوضِّح لنا اتِّباعَه الشريعة، وسعيَه لتنظيم حياته على حسب ما جاء في الكتاب والسنة.

وإنه ليُحزِن مولانا جلال الدين ادِّعاءُ الانتساب إلى طريقه دون العمل بالأحكام الشرعية.

والإرشاد الحقيقي إنما هو سعي لتطبيق ما طبَّقه نبي الله ﷺ في حياته في الظاهر والباطن. فالنبي ﷺ -مع أنه قمة الكمال المعنوي- قد أدَّى ما تفرضه العبودية لله ﷻ

في الظاهر أداءً تامًّا حتى خروج أنفاسه الأخيرة، ؛ فعلى كل مؤمن يتأسى بهذا النبي العظيم أن يطبق الأحكام الشرعية مهما كان موقعه المعنوي ومقامه ومشربه وطريقته.

والحادثة التالية التي يرويها الشيخ عبد القادر الجيلاني خير مثال لما ذكرناه:

«خرجت في بعض سياحاتي إلى البرية، ومكثت أيامًا لا أجد ماء، فاشتد بي العطش، فأظلتني سحابة، ونزل عليَّ منها شيء يشبه الندى فرويتُ، ثم رأيت نورًا أضاء به الأفق، وبدت لي صورة، ونوديت منها: يا عبد القادر، أنا ربك، وقد أحللت لك المحرمات -أو قال ما حرمت على غيرك- فقلت: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، اِخسأ يا لعين، فإذا ذلك النور ظلام، وتلك الصورة دخان، ثم خاطبني قائلا: يا عبد القادر نجوت مني بعلمك بحكم ربك وقوتك في أحوال منازلاتك، ولقد أضللتُ بهذه الواقعة سبعين من أهل الطريق، فقلت: لربي الفضل والمنة. قال: فقيل له: كيف علمت أنه شيطان؟ قال: بقوله: قد أحللت لك المحرمات».[١٣]

---

١٣ ابن العماد، شذرات الذهب، ٦، ٣٣٣-٣٣٤.

ويقول الإمام الربَّاني في هذا الشأن:

«الاهتمام في الباطن مستلزم للاهتمام في الظاهر، والذي يهتم بالباطن ويعجز عن الظاهر فهو ملحد، وأحواله الباطنية استدراجاته[14]، وعلامة صحة حال الباطن تحلي الظاهر بالأحكام الشرعية، وطريق الاستقامة هو هذا».[15]

لذلك فإن العبد الذي لا تقوم حياته على منهاج الكتاب والسنة ويهمل ما يفرضه الدين عليه، لن يكون من أهل الإرشاد الكامل مهما ادَّعى الإرشاد.

فالمؤمن -على سبيل المثال- لا يمكن له المضي في طريق السير والسلوك إذا كان لا يقسِّم الإرث كما أمر الله تعالى وبينه رسوله ﷺ ويحرم الوارثين حقوقهم من أجل منافع دنيوية فانية.

وصفوة الكلام أن الإرشاد الكامل معرفة رسول الله ﷺ عن قرب، والسعي لتمثُّل الإسلام بروحانيته على أجمل

---

١٤ الاستدراج ضدُّ الكرامة، وهو الخوارق للعادات التي تظهر من الكافر والفاسق والمتمشيخ؛ أي الشخص الذي يتظاهر بالولاية.

١٥ الإمام الرباني، المكتوبات، ٢، ٨٧.

صورة تناسب جوهره، وذلك بمحبة النبي ﷺ والتخلق بأخلاقه الرفيعة والاقتداء به.

ولا بد لنا في ختام هذا المبحث أن نذكر لمحات موجزة عن القرآن الكريم والسنة النبوية لنعرف القارئ بهما أكثر:

١ . القرآن الكريم:

القرآن هو: «كلام الله ﷻ المنزل على رسوله ﷺ بلسان عربي مبين، المنقول إلينا بالتواتر، والمُتعبَّد بتلاوته، والمكتوب في المصحف، والمعجز في لفظه ومعناه، والمبدوء بسورة الفاتحة، والمختوم بسورة الناس»، وهو المصدر الأول للتشريع الإسلامي، عنه يصدر كل خير، وإليه يلجأ كل عالم وداعية، وهو العروة الوثقى التي لا انفصام لها، وحبل الله المتين، ونذكر فيما يلي أهم خصائصه التي اُختص بها، ومنها:

أ. **الربانية**: القرآن كلام الله ﷻ فهو رباني بكل ما تحتمله هذه اللفظة من معان، لا دخل لبشر فيه أبداً، لا من حيث اللفظ ولا من حيث المعنى، قال تعالى:

﴿إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ. فِي كِتَابٍ مَكْنُونٍ. لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ. تَنْزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (الواقعة، ٧٧-٨٠)

ب. **الكمال**: فكلام الله ﷻ منزه عن كل نقص وعيب، قال تعالى:

﴿...وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ. لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ (فصلت، ٤١-٤٢)

ج. **الوضوح**: والإبانة، قال تعالى في وصف كتابه:

﴿وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ...﴾ (الحج، ١٦)

د. **الشمول**: والإحاطة فالقرآن شاملٌ لجميع ما يحتاج إليه الإنسان في دنياه وآخرته، لأنه أُنزل لسعادته في الدنيا والآخرة، قال تعالى:

﴿...مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ...﴾ (الأنعام، ٣٨)

هـ. **العملية**: فالقرآن كتاب عملي، جاء بشريعة عامة للبشر جميعاً، يصلح للتطبيق في كل زمان ومكان حتى تقوم الساعة.

و. **التوازن**: فالقرآن متوازن فيما جاء به من أحكام، وما عرضه من موضوعات، وما عالجه من مشكلات، يحقق

انسجاما بين الروح والمادة، وبين العقل والقلب، وبين الحقوق والواجبات، وما إلى ذلك من أوجه التوازن.

ز. **الإعجاز**: القرآن كلام الله المعجز، المتحدى بإعجازه، ولا يزال التحدي قائما إلى يوم القيامة، ولا زال العلماء يكشفون يوما بعد يوم عن وجوه إعجازه، كل بحسب إمكاناته وتخصصه، قال تعالى:

﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ...﴾ (فصلت، ٥٣)

ح. **التواتر القطعي**: ويعني اتصال سند نقل القرآن وروايته من النبي ﷺ إلى إلى يومنا هذا دون انقطاع على وجه التواتر القطعي، حيث نقله الجمع الغفير عن الجمع الغفير نقلا لا يدخله الشك أبدا.

ط. **الحفظ**: ويعني السلامة من التحريف والزيادة والنقص، فقد حفظه الله ﷻ من أن تزيد فيه شياطين الإنس والجن باطلاً أو تنقص منه حقّاً، وحفظه من أي تغيير أو تبديل، فلم يزل محفوظاً إلى يومنا هذا، قال تعالى:

﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ (الحجر، ٩)

٢. **السنة النبوية:** هي ما صدر عن النبي محمد ﷺ من فعل أو قول أو تقرير، وهي المصدر الثاني للتشريع، وقد جاءت السنة النبوية في هذه المكانة لأنها إما أن تكون مبينة ومفصلة لما جاء في القرآن الكريم، وإما أن تثبت حكماً جديداً لم ينص عليه القرآن، ومن هنا كانت طاعة الرسول ﷺ مقرونة بطاعة الله تعالى، قال سبحانه:

﴿أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ (النساء، ٥٩)

وتشترك السنة مع القرآن الكريم في عدد من خصائصه، ولا سيما الخصائص العامة الأولى لأنها ترجع في حقيقتها إلى خصيصة الربانية، فالرسول الذي نتحدث عن سنته هو رسول رب العالمين. ومن خصائص السنة النبوية:

أ. **أنها نوع من الوحي**، قال تعالى:

﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى﴾ (النجم، ٣-٤)

ب. **اتصال السند:** وهذا من خصائص الأمة الإسلامية، حيث لا تجد عند الأمم الأخرى اليوم سنداً متصلاً لأقوال أنبيائها ورسلها عليهم الصلاة والسلام.

ج. **الحفظ من الضياع**: وذلك لأن حفظ السنة من لوازم حفظ القرآن، فهي المبينة له، والمفصلة لمجمله، والمتممة لأحكامه.

د. **العصمة من الخطأ في التشريع**: وذلك لأن السنة وحي، والوحي منزه عن الخطأ، وجاء في الحديث عن عبد الله بن عمرو بن العاص ﵁ أن النبي ﷺ حين أذن له بكتابة الحديث قال:

«اكتب فوالذي نفسي بيده ما يخرج منه إلا حق»[١٦]

وخلاصة ما سبق من خصائص فريدة للقرآن الكريم والسنّة الشريفة، نعلم أن المنهج الوحيد الذي يمكن للبشرية -التي تشكو التعاسة جراء التقدم التقني المعاصر- أن تنعم بالسعادة في ظله هو منهج رب العالمين، المحيط بكل شيء، المتصف بالعدل، المنزه عن الجهل والظلم والغفلة، المتمثل في **كتاب الله** ﷻ

١٦ أبو داوود، العلم، ٣٦٤٦.

الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، **وسنة نبيه ﷺ الثابتة الصحيحة**، وهو المنهج الذي شرف الله تعالى به هذه الأمة الإسلامية، وجعلها به خير أمة أخرجت للناس، فهو النور الهادي، والدواء الشافي، والصراط المستقيم، وحبل الله المتين، الذي يخرج الناس من الظلمات إلى النور.

قد أفصح هذا المنهج عن نفسه غاية الإفصاح، وأقام على الناس -وبخاصة أهله- الحجة، فبيّن مصدره، وهو الله ﷻ، وبيّن غايته، وهي هداية البشر، وبيّن ثمرته، وهي سعادة البشر وإخراجهم من الظلمات إلى النور، فقال تعالى:

﴿... قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ. يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾
(المائدة،١٥-١٦)

وقال تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ بُرْهَانٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُوراً مُبِيناً﴾ (النساء، ١٧٤)

وقال تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذا دَعاكُمْ لِما يُحْيِيكُمْ ...﴾ (الأنفال، ٢٤)

وقال تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَشِفاءٌ لِما فِي الصُّدُورِ وَهُدىً وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ (يونس، ٥٧)

فالقرآن هو الشفاء التام من جميع الأدواء القلبية والبدنية، وأدواء الدنيا والآخرة، وإذا أحسن العليل التداوي به، ووضعه على دائه بصدق وإيمان وقبول تام واعتقاد جازم واستيفاءٍ لشروطه، لم يقاومه داء، ولا استعصى عليه مرض، وكيف تقاوم الأدواء كلام رب الأرض والسماء الذي لو نزل على الجبال لصدعها أو على الأرض لفلقها؟! فما من مرض من أمراض القلوب والأبدان إلا وفي القرآن والسنة سبيل الدلالة على دوائه وسببه والحمية منه، لمن رزقه الله ﷻ فهما في كتابه وسنة نبيه ﷺ، ولكن ثمة في كل عصر من ليس أهلاً للاستشفاء بهذا الشفاء الرباني.

فقد بين هذا الله ﷻ للناس أن من لم يستضئ بنور منهجه ويهتدِ بهداه ويستشفِ به من أمراض الجهالة والعصيان، ولم يستجب له ليمنحه الحياة السعيدة، فإنه سيتخبط في ظلمات الكفر وضلالات الجهل وآفات الهوى والمعاصي، وبدلا من أن يسلك صراط الله تعالى المستقيم فسيسلك سبل عدوه الشيطان الرجيم، كما قال تعالى:

﴿... **وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُمْ مِنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ**...﴾ (البقرة، ٢٥٧)



الركن الثاني

الأوراد والأذكار

الذكر هو الوسيلة التي يزداد بها الإيمان ويعظُم، وتحيا بها القلوب ساكنة مطمئنة، وهو القطار الذي يمر بك في مسيرك على محطات الألطاف الإلهية، ويجتاز رياض الروحانية، ويصل بك في النهاية إلى الحق سبحانه؛ لأنك عشت طوال حياتك في ذكره وعلى طريقه، فالإنسان يموت على ما عاش عليه، ويُحشر على ما مات عليه، يقول النبي ﷺ:

«يُبعث كل عبد على ما مات عليه»

(مسلم، الجنة، ٨٣)

٢- الركن الثاني: الأوراد والأذكار

إن للأوراد والأذكار التي يناجي بها المؤمنُ ربَّه في الأسحارِ أهميةً بالغةً، فهي تُحيي القلبَ حين تجعله في معية ربه وهو يذكره، فكما قال أولياء الله تعالى: «لا وارد لمن لا وِردَ له»، أي إن المرء الذي لا نصيب له من الذكر يداوم عليه كل حين لا ينال حظا من الفيوضات الإلهية.

وبدايةً نقول إن أهم وِرْدٍ ينبغي أن تنبثق عنه كلُّ أورادنا وأذكارنا إنما هو استقامتنا على طاعةِ الله تعالى وطاعةِ رسوله الكريم ﷺ، فهو الأسوة الحسنة لنا في اعتقاده وعبادته.

ولقد عرف الحق ﷻ نفسه إلى جميع مخلوقاته حيِّها وجمادها، وأمرهم جميعا بعبادته وذكره، فترى المخلوقاتِ جميعها تذكر الله تعالى، كلٌّ بما يتوافق مع خِلقَته التي خلقه الله تعالى عليها.

وقد أخبرنا القرآنُ الكريم أنه ما من شيء صَغُرَ أو كَبُرَ في السموات والأرض إلا ويذكر الله تعالى ويسبح بحمده، وأنه ما من شيء في السموات والأرض إلا ويسجد لله تعالى، فالسماوات والأرضين، والجبال والشجر والدواب، والشمس والقمر والنجوم، وكلُّ ذرة في الكون تسجد لله ﷻ طوعا أو كرها، عبادةً لله تعالى، حتى ظلالُنا عن اليمين والشمائل، كل ذلك يسجد لله تعالى:

﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَالُهُمْ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ﴾ (الرعد، ١٥)

فتتمازج في هذا المنظر الجميل السجدات مع الظلال في مشهد مهيب، فإحداهما سجدة المخلوق والأخرى سجدة ظله، فهما سجدتان في آن واحد.

وهكذا تمضي الآيات وهي تعرِض لنا مسرحاً من الظلال والأشياء والأحياء والملائكة، كلٌ منهم يؤدي ما كُلِّفَ به في خشوع ووَجْدٍ، أما التهربُ من العبادة، والغفلةُ عن الله تعالى فهي من شأن الإنسان فقط، ولذلك ترى الآياتِ تهزأ بهؤلاء الغافلين وهي تجبههم بصور المخلوقات الأخرى تملأ الكون عبادة تسبيحا.

أ- ذِكر اللّه عَزَّوَجَلَّ

إن الله سبحانه وتعالى يأمرنا أن نكثر ذكره بكل وسيلة وعلى كل حال، فيقول:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللهَ ذِكْرًا كَثِيرًا﴾ (الأحزاب، ٤١)

ويأمرنا أن نكون معه بالقلب كل حين فيقول:

﴿الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ...﴾ (آل عمران، ١٩١)

قال الله تعالى:

﴿وَاذْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ وَلَا تَكُنْ مِنَ الْغَافِلِينَ﴾ (الأعراف، ٢٠٥)

﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ ...﴾ (البقرة،١٥٢)

﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللهِ أَلَا بِذِكْرِ اللهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ (الرعد، ٢٨)

﴿...وَالذَّاكِرِينَ اللهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾ (الأحزاب،٣٥)

قال النبي ﷺ:

«مثل الذي يذكر ربه والذي لا يذكر ربه، مثل الحي والميت»[17]

فالله تعالى الذي لا يغيب عباده عن نظره لحظة يريد منهم أن لا يغيب ذكرُه عن قلوبهم لحظة، وهذا يقتضي من المؤمن الحق أن لا يقصر ذكر ربِّه على أداء الصلوات فحسب؛ بل أن يحافظ على شعور المعية رطبا نديا حتى بعد أداء الصلاة.

ويُعد ذكر الله أحد أهم طرق المرشدين الكاملين، فقد وضعوا طرقا وأساليب متنوعة على مدى تاريخهم الطويل حتى يصلوا إلى مقام الفناء في الله تعالى، ويغيبوا في ذكره عن الوجود كله، فلا يبق في القلب أحد إلا هو سبحانه.

ولكنْ ثمَّةَ طريقةٌ نود أن نعرض لها هنا بشيءٍ من التفصيل، وهي طريقةٌ يصل بها العبد إلى مقام الذكر الكلي، فتصير كلُّ جوارحه وأعضائه تذكر الله تعالى، وتكون هذه الطريقة من خلال تحديد اللطائف الروحانية في جسم الإنسان.

---

١٧ صحيح البخاري، باب فضل ذِكر الله ﷻ، ٦٤٠٧.

فكما أنَّ في الجسم مراكزَ حسيةً تقوم على رعاية الجسد فكذلك ثمة مراكز معنوية ترعى الروح وتعتني بها، وكما يُطلَب من أحدنا -لتستمر الحياةُ- أن يحافظَ على مراكز جسمه الحسيةِ كالقلبِ والمخِّ والرئةِ والكَبِدِ فكذلك يجب أيضا -حتى نحافظ على يقظة روحنا ورقة شعورنا- أن نرعى مراكزنا الروحيةَ ونعتني بسلامتها.

وهكذا حدد بعضُ أهل الله تعالى لطائفَ ومراكز في الجسد -بالإلهام والتجربة- ترعى الروحَ وتقوم على شؤونها، وقد ذكروا لها مواضعَ ومسمياتٍ متنوعةً نختصرها كما يلي:

- **القلب**: وهو اللطيفة التي تتوضع في قطعة من اللحم صنوبرية الشكل، تقع تحت أصبعين في الجانب الأيسر من الصدر، ونعني بها اللطيفة المعنوية التي تشكل المركز الحسي داخل قلبنا المادي المعروف.

- **الروح**: هي اللطيفة المعنوية الواقعة تحت أصبعين في الجانب الأيمن من الصدر.

- **السر**: هو اللطيفة المعنوية التي تتوضع على مقدار أصبعين من أعلى الجانب الأيسر في الصدر.

- **خفي**: هو اللطيفة المعنوية التي تتوضع على مقدار أصبعين من أعلى الجانب الأيسر في الصدر.

- **أخفى**: وهي اللطيفة المعنوية التي تقع في مركز الصدر وتتوسط اللطائف الأربعة السابقة.

- **النفس الناطقة**: هي اللطيفة المعنوية التي تمتد على هيئة خط من بين الحاجبين إلى الأعلى.

- **الذكر السلطاني**: حيث يستولي الذكر على كلِّ ذرة من ذرات الجسد، فلا ترى جارحة في الجسد إلا غارقة في ذكر الله تعالى، وبعبارة أخرى أن تتحول الجوارح كلها إلى اللطائف المذكورة في الأعلى وتعتاد على ذكر الله ﷻ.

ويبين المرشدون الذين يقومون على تهذيب القلوب وترقيتها أن هذه اللطائف ليست من عالم «الخلق»، وإنما هي سِرٌّ من أسرار عالم «الأمر»، وأنها -على وضوحها عند أهل الله تعالى- إلا أنه تعجز القوالب اللغوية عن توضيحها وبيانها لنا.

ويبين لنا المرشدون -الذين يَعُدُّونَ الذِّكرَ أهمَّ طرق الوصول إلى الله تعالى- أن الذكر يكون على حالين، ذكراً جهرياً يقوم بالأعضاء والجوارح الحسية، وذكراً خفياً

تتلبَّس به اللطائفُ المعنوية، وتحلق فيه الروح، وهذا هو الذكر المقصود في قوله تعالى:

﴿وَاذْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ وَلَا تَكُنْ مِنَ الْغَافِلِينَ﴾ (الأعراف، ٢٠٥)

ولما كان الذكر الخفي لا يقوم إلا بهذه اللطائف فإنها لا تنشط ولا تقوى إلا بكثرة الذكر ودوامه، وفي هذا المعنى يقول الشيخ محمود سامي قُدِّس سرُّه:

«إن الشرط الأول لتوفيق القلب وتصفيته هو الذكر الدائم المتصل، لأن الله تعالى يقول:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا﴾ (الأحزاب، ٤١)

وإلا فالذكر القليل لا يكفي لترقيق القلب، وإنما يرق القلب بكثرة الذكر، وعلى الإنسان ألا يسمح لشيء أن يمنعه من بلوغ هذا المقام، فبه يكون من المكرَّمين ويتطهر قلبا وقالبا، ويشع نورا وحكمة»[١٨]

ويتحدث صاحبُ الوفا الأستاذ موسى طوباش قُدِّسَ سِرُّه مبيِّناً أهميةَ ذكرِ الله تعالى في تربية الروح وتزكيتها:

---

١٨ صحبة العيد (Bayram sohbetleri)، ص٤٤ .

«إنَّ الذكرَ الكاملَ هو معيارُ محبة الله تعالى والإيمانِ به، فالـمُحِبُّ لا يكاد يغفُل عن ذكرِ مَن يحبُّه، ولا يفتأ يردد اسمه في كلِّ لحظةٍ من ليلٍ أو نهار، فمَن نالَ شرفَ ذكرِ اللهِ تعالى فقد نال كل خير، ومن حُرِمَ شرفِ ذكر الله تعالى حُرِم كل خير، فبذكر الله تعالى يتنوَّر القلبُ ويزكو، وتطمئنُّ النفسُ وتعلو، والمشغولُ بالذكر والمداومُ عليه يَعمُر قلبُه بالخير، وتتزين فِعالُه وأخلاقُه بالحسن والبهاء، وتَسعَد روحُه وتهفو، فحينما يصل العبد إلى مقام المحبة الإلهية يفنى كلُّ شيء في قلبه إلا ذكر الله تعالى، ويغيب كلُّ محبوب وتَعَلُّقٍ بغيره سبحانه، فلذلك كان على العبد ألا يشغل قلبه بغير ذكر الله تعالى، وأن يجتهد في إيقاظ روحه وترقيتها بذكر الله تعالى حتى يفيض هذا الذكر على كل جوارح الجسد وتنعم به كل لطائف النفس»[١٩]

فالإنسان من حيث الجسدُ الفاني خُلِق من تراب وسيعود إلى تراب، وأما من حيث الروحُ الخالدةُ فهي نفخةُ الله تعالى وروحٌ منه، ويوم البعث سيكسو الروحَ

---

١٩ صادق دانا، صحبة العيد (Altinoluk sohbetleri) ، دار الأرقم للنشر، اسطنبول، ٢٠٠٤، ص ٦٦ .

جسدٌ جديدٌ، يكون مظلمًا أو نورانيًا، وذلك بحسب مقام الروح والحال التي كانت عليها في الدنيا، فعندما نرتقي بأرواحنا وتشرق بأنوار ذكر الله تعالى في الدنيا فستشرق في الآخرة أيضا، فعلينا أن نغتنم حياتنا قبل الموت لنسعى جاهدين إلى التلحف بهذه النورانية يوم القيامة.

وبقدر ما نذكر الله تعالى في هذه الحياة الدنيا ننعم بوصاله في الحياة الآخرة، لأن ذكرَ الله تعالى هو الطريقُ للحياةِ بطُهر ونقاء، والموتِ على أكمل درجات الإيمان. ومما لا شك فيه أن حضورَ العبد مع ربه وذكرَه له سرًا وجهرًا هو الطريق إلى الأنس الإلهي، فأنى قلَّب المؤمنون أبصارَهم في هذا الكون فسيبصرون نور الله تعالى، وحيثما أرهفوا أسماعهم فسيسمعون تسبيح الله تعالى يملأ أرجاء الكون.

فذِكرُ الله ﷻ لا يكون بتكرار الكلمات على اللسان فحسب، فلا بد للذكر –حتى يؤثِّرَ في باطن الإنسان وظاهره– من أن يكون شعورًا وحضورًا في القلب، إذ هو مركز التوجيه لكل جوارح الإنسان، والذكر حين يكون على هذه الهيئة من الحضور والوعي يكون وفاءً بما قطعه الإنسانُ على نفسه أمام ربِّه في يوم «ألست» حين خاطب

الله تعالى عباده: ألست بربكم ؟، فأجابوه: بلى.

فقد كان رسول الله ﷺ يحثُّ أصحابه على الإكثار من ذكر الله تعالى، ويدلهم على ما يوافق حالَ كلِّ واحدٍ منهم، وليس أدلَّ على ذلك من الحديث الذي دار بين النبي ﷺ وأم هانئ رضي الله عنها، فعن أم هانئ رضي الله عنهاقالت: أتيت رسول الله ﷺ، فقلت: يا رسول الله، دلني على عمل فإني قد كبرت وضعفت وبَدِنْتُ، فقال:

«كبري الله مائة مرة، واحمدي الله مائة مرة، وسبحي الله مائة مرة خير من مائة فرس ملجم مسرج في سبيل الله، وخير من مائة بدنة، وخير من مائة رقبة»[٢٠]

ب- التوبة والاستغفار:

إنَّ الذكرَ بوجدان طاهرٍ وفؤاد نقي عن كل شائبة أمرٌ مهم جدًا، ولهذا السر كانَ يبدأ أهل الله تعالى أورادهم وأذكارهم بالتوبة والاستغفار.

والتوبة هي الرجوع إلى الحق والإنابة إليه، فالعبد حين يغفل عن الحق يسلك الطريق الخطأ ويتحوَّل بوجهه وقلبه

٢٠ ابن ماجه، الأدب، ٣٨١٠ .

عن ربه، وحين يدرك ذلك ويؤوب إلى ربه يَفِيْضُ قلبُه بدمع حارٍّ وأنَّةٍ متأوهة وندمٍ شديد، فهذا التحرق والندم هو التوبة، أما التضرع الذي يضج به القلب -بعد التوبة- رجاءَ العفو والصفح فهو ما نسميه الاستغفار.

وهذه الحال كانت حالَ الأولياء والصالحين والصديقين جميعاً، وفي مقدمتهم الأنبياءُ عليهم السلام، فكلهم كان ديدنَهم الالتجاءُ إلى الله تعالى والتضرعُ إليه في السَّراء والضراء، ولا يُتَصَوَّرُ بحالٍ أن يكون شخصٌ ما في هذا الكون الفسيح في غنىً عن الدعاء والاستغفار، لأنهما يحملان -إضافة إلى معانيهما الأصيلة- معانيَ الندم والتضرع، لذا فقد كانا الوسيلةَ الأهمَّ للتقرب إلى الله تعالى.

ولما كان شكرُنا لله ﷻ على نِعَمِه الجزيلةِ التي تفضَّل بها علينا وقيامُنا بحقها أمراً يفوق طاقتنا -حتى لو لم تَشُلَّ الذنوب جوارحَنا-، فقد كان الاستغفار من ضروريات العبودية، وعندما ننظر إلى ما حولنا بعيونِ قلوبنا فإننا نرى جميع المخلوقات تعترف أولا بعجزها وضعفها قبل أن تتوجه إلى الله تعالى بالشكر على نعمه، ومن هنا كان الاستغفار هو الخطوةَ الأولى التي يحتاج ابن آدم -الذي لا ينفك عن المعاصي- أن يخطوها في طريقه وهو يتقرب

إلى الله تعالى، يقول ابن عمر ﵄: كنا نعدُّ لرسول الله ﷺ في المجلس الواحد مائة مرة من قبل أن يقوم:

«**رب اغفر لي وتب علي، إنك أنت التواب الغفور**». [٢١]

فالاستغفار هو الوسيلة الأهم في السعيِ إلى الله تعالى، والتطهرِ من الشهوات والأدناس، والارتقاءِ بالقلب إلى مرتقى عليٍّ، والتوبةُ المقبولة كذلك ترفع الحجب وتزيل العوائق بين العبد وربه، وتُدني العبدَ من ربه ليَنْعَم بمحبته، يقول المولى سبحانه وتعالى:

﴿**...إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ**﴾ (البقرة، ٢٢٢)

فإذا كان الفجرُ يَعقُبُ الليلَ فيمحو ظلامَه، فإن الاستغفار هو تلك الرحمةُ التي تزيل من النفس ظلمات الذنوب حتى تصل بالعبد إلى فجر المغفرة.

وعند ارتكابنا الإثم -الذي هو من طبيعة بشريتنا- علينا أن نفرَّ مسرعين إلى الله تعالى، فنستغفره ونتوب إليه، فقد مدح سبحانه عباده المتقين فقال فيهم:

﴿**وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ**

٢١ الترمذي، الدعوات، ٣٤٣٤.

فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ (آل عمران، ١٣٥)

﴿كَانُوا قَلِيلًا مِنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ. وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ (الذاريات، ١٧-١٨)

وفي ذلك يقول النبيُّ ﷺ:

«إن العبد إذا أخطأ خطيئة نكتت في قلبه نكتة سوداء، فإذا هو نزع واستغفر وتاب سقل قلبه، وإن عاد زيد فيها حتى تعلو قلبه، وهو الران الذي ذكر الله» ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ (المطففين، ١٤).[٢٢]

ويبين النبيُّ ﷺ في حديثٍ آخرَ طرفا من فضائل الاستغفار، فيقول:

«من لزم الاستغفار، جعل الله له من كل ضيق مخرجا، ومن كل هم فرجا، ورزقه من حيث لا يحتسب»[٢٣]

ومن ناحيةٍ أخرى فالتوبةُ والاستغفارُ هما وسيلةُ المؤمن للنَّجاة من عذابات الدنيا والآخرة.

---

٢٢ الترمذي، تفسير القرآن، ٣٣٣٤ .

٢٣ أبو داود، الوتر، ١٥١٨ .

يقول النبيُّ ﷺ:

«أنزل الله علي أمانين لأمتي ﴿وَمَا كَانَ اللهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ (الأنفال، ٣٣)، **فإذا مضيتُ تركتُ فيهم الاستغفار إلى يوم القيامة»**[٢٤].

وإن أوقات السَّحَر بما تحمله من معان روحانية هي بمثابة النبع الذي تفيض منه فيوضات الكرم والإحسان من الحق سبحانه على عباده، وفي ذلك يقول النبيُّ ﷺ:

«ينزل ربنا تبارك وتعالى كل ليلة إلى السماء الدنيا، حين يبقى ثلث الليل الآخر، فيقول: من يدعوني فأستجيب له، ومن يسألني فأعطيه، ومن يستغفرني فأغفر له»[٢٥]

وحتى نصل بالتوبة إلى مرتبة التوبة النصوح، ليقبلها اللهُ تعالى منا فعلينا أن نراعي الأمور الآتية:

فلابد أن يكون الاعتراف بالعجز أوَّل ما يستقر في قلب التائب، فإن بقي في أعماق أحدنا ذرةٌ من الأنانية فستحُوْلُ بينه وبين الرحمة الإلهية التي يرجوها من التوبة،

---

٢٤ الترمذي، تفسير القرآن، ٣٠٨٢ .

٢٥ مسلم، صلاة المسافرين، ١٦٨/ ٧٥٨ .

فالاستغفار ليس كلماتٍ نرددها باللسان، بل هو تضرعٌ يصاحبه شعور عميق بالعجز، راجين نحن العبادَ الضعفاءَ من الله العظيم القادر أن يقبلنا ويتوب علينا ويُمطر علينا من فضله وجوده وكرمه.

ثم إن التوبة تقتضي الصدقَ والإخلاصَ شأنها في هذا شأن سائر الأعمال الصالحة الأخرى، كما تقتضي التوبة كذلك الندمَ الصادق والعزمَ الأكيد على ألا يعود المرءُ مرةً أخرى إلى الإثم الذي ارتكبه، وأن يرجو الله تعالى أن يتجاوز عنه. ولأهمية التوبة والاستغفار على النَّحوِ الذي بينَّاه آنفاً كانت كل الطرق الصوفية تستهلُّ تضرعها وقت السحر بالاستغفار للارتقاء بالروح إلى أسمى مرتبة.

ومن أبلغ أوراد الاستغفار «**أستغفر الله العظيم**».

- **التوبة العظيمة:**

أَسْتَغْفِرُ اللهَ، أَسْتَغْفِرُ اللهَ، أَسْتَغْفِرُ اللهَ العَظِيمَ الكَرِيمَ الذي لا إلهَ إلا هوَ، الحَيَّ القَيُّومَ وأتوبُ إليه، ونسألُه التَّوبَةَ والمَغْفِرَةَ والهِدَايةَ لنا، إنَّهُ هوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ، توبةَ عبدٍ ظَالمٍ لنَفْسِهِ، لا يَمْلِكُ لنفسِه موتاً ولا حياةً ولا نُشُورًا.

- **سيد الاستغفار:**

والعبد حين يستغفر اللهَ تعالى فإنه يقرُّ بتقصيره فيرجو عفوه، ويستشعر ذنوبه فينكر ذاته، ومن جانب آخر فإنه باستغفاره يؤكد على عبوديته لله تعالى، ويجدد عهده له بكلماتِ سيدِ الاستغفار التي علمنا إياها الرسول ﷺ في الحديث الشريف:

«سَيِّدُ الِاسْتِغْفَارِ أَنْ تَقُولَ: **اللَّهُمَّ أَنْتَ رَبِّي لاَ إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ، خَلَقْتَنِي وَأَنَا عَبْدُكَ، وَأَنَا عَلَى عَهْدِكَ وَوَعْدِكَ مَا اسْتَطَعْتُ، أَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ مَا صَنَعْتُ، أَبُوءُ لَكَ بِنِعْمَتِكَ عَلَيَّ، وَأَبُوءُ لَكَ بِذَنْبِي فَاغْفِرْ لِي، فَإِنَّهُ لاَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا أَنْتَ**»[٢٦]

فالعبد حين يطلب العفو بـ «**التوبة العظيمة**» أو بـ«**سيد الاستغفار**» -مدركا ما ارتكبه من جُرم- فإنه يقرُّ بعبوديته لربه، أو بتعبير آخر يكون قد جدد العهد الذي أخذه على نفسه في يوم «ألست بربكم».

---

٢٦ البخاري، الدعوات، ٦٣٠٦، و تتمة الحديث «...ومن قالها من النهار موقنا بها، فمات من يومه قبل أن يمسي، فهو من أهل الجنة، ومن قالها من الليل موقنا بها، فمات قبل أن يصبح، فهو من أهل الجنة».

ج- كلمة التوحيد.

لا إلهَ إلا اللهُ المَلِكُ الحَقُّ المُبِينُ، محمدٌ رسولُ اللهِ الصَّادِقُ الوَعدِ الأمِينُ.

كلمةُ التوحيد إعلانٌ بأنه لا يستحق العبادةَ في هذا الكون شيء سوى الله ﷻ، وهي أيضا شعورٌ بالفناء في الله تعالى، وأنه هو وحده الباقي بينما سيفنى كل ما عداه.

روي عن أبي هريرة ﵁ أن رسول الله ﷺ قال مخاطباً أصحابه: «**جددوا إيمانكم**»، قِيلَ: يا رسول الله، وكيف نجدِّد إيماننا؟ قال: «**أكثروا مِن قول لا إله إلّا الله**»[27]

و كلمة التوحيد لا تقتصر على اللفظِ وحده مجرداً عن الوجدان، فهي لابد أن تستقرَّ في أعماق القلب شعوراً، وفي فضاءات العقل يقيناً، بعيدا عن كل انحراف أو هوى، ومن هنا كان علينا أن نحفظَ قلوبنا وعقائدنا من أهواءِ النَّفسِ وتقلُّباتها.

وكلمة التوحيد كذلك لا يقتصر العبدُ على تردادها في الأسحارِ، بل عليه أن يعيشها واقعا في النهارِ، فكلما

---

٢٧ المستدرك على الصحيحين، التوبة، ٧٦٥٧؛ أحمد، مسند، ٨٧١٠.

استقرت كلمة التوحيد في أعماقنا كنا أبعدَ عن المعاصي وأقربَ للهِ تعالى.

وكلمة التوحيد كذلك تزيدنا قرباً من رسولِ الله ﷺ حتى نوفيَه حقَّه بالاقتداءِ به والتأسي بحاله، فلابد للمريدِ حين يرددُ كلمةَ التَّوحيدِ أن يتمثلَ هذه المعانيَ الساميةَ كلَّها.

فالحقُّ سبحانه وتعالى يريدنا أن نحيا بكلمة التوحيد حتى نزداد له حبا وتعظيما، فلا نعظم غيرَه ولا نعبدَ سواه، ولا نسمح لأيِّ شيءٍ أن يتحول إلى وثن في قلوبنا، فالله تعالى يريد لقلوبنا أن تتطهَّر عن كل وثنٍ حتى تكون له وحده، لا ترجو ولا ترهب ولا تتعلق إلا به سبحانه.

وإذا ما عشنا كلمةَ التوحيدِ على النَّحوِ الذي ذكرناه فإن صفاتِ اللهِ تعالى تتجلى علينا، فيصيرِ لنا من أسماءِ الله تعالى وصفاتِه نصيباً، فحين يتجلى اللهُ علينا مثلاً باسمه "**الرحمن**" ترى قلوبنا تفيض بالرحمة لكلِّ خَلْقِ الله تعالى بلا استثناء، وحين يتجلى الله علينا بصفة "**العفو**" فإنك ترى النفس تعفو وتصفح عن كل أذى أو تقصير في حقها، ولا يبقى فيها مكان لحقدٍ أو انتقام من المؤمنين، وإذا تجلى اللهُ علينا باسمه "**الودود**" فستفيضُ أعماقُنا بمحبة صادقة

لكل شخص أو شيء ما خلا أعداء الله تعالى، فلا يخالفُ أحدٌ في أنَّ عداوةَ هؤلاءِ قربةٌ للهِ تعالى.

د- الصلوات الشريفة:

اللهمَّ صَلِّ على سيدِنا محمَّدٍ، وعلى آلِه وصحبِه وبارِك وسَلِّم.

يشيرُ المولى سبحانَه وتعالى إلى مكانةِ حبيبه المصطفى ﷺ لديه، فاللهُ ﷻ يأمرُ المؤمنين بطاعةِ النبي طاعةً كاملةً كما يأمرُهم بطاعتِه هو سبحانه. فيقول الله ﷻ:

﴿مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ وَمَنْ تَوَلَّى فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا﴾ (النساء، ٥٢)

فإدراكاتنا البشريةُ الكليلةُ لا تَقوَى على معرفةِ قَدْرِ النبي ﷺ وشرفِه حقَّ المعرفة، فكما أننا نعجز عن أن نجمع البحرَ في كأس، فكذلك نعجز عن أن ندركَ ونوضِّحَ قدرَ النبي المصطفى ﷺ مهما جمعنا في وصفِه من صفاتِ التعظيم والإجلال. ويقول الله ﷻ:

﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ (الأحزاب، ٥٦)

فالآية الكريمة تبين لنا أن الصلاة والسلام على سيد الكائنات واجب بمقتضى أمر الله تعالى، وهذه من الآداب التي حثنا عليها المولى ﷻ، وأمر بها الأمة كلها تجاه النبي ﷺ، بل إنه من مقتضيات الإيمان ومن أساسيات الإسلام السعيُ الدائم للتخلق بأخلاقه الكريمة ﷺ، والتأسي بسيرته العطرة، وتتبع آثاره وسننه الشريفة، وترسيخ محبته ﷺ بالقلوب.

وتكتسبُ الصلواتُ الشريفةُ أهميةً عظيمةً، فبها تُنعِم يدُ القدرةِ الإلهيةِ على القلبِ فيوضاتِها وتجلياتِها، وبسببها تقوى رابطةُ المؤمنِ مع النبي ﷺ فيَصحبُه في كلِّ زمانٍ ومكانٍ حلَّ فيه -وخاصةً أوقاتُ السَّحَرِ المباركِ- حتى ينالَ من بركاتِه وروحانيَّاتِه.

و ليس أدلَّ على أهمية الصلاةِ على النبي ﷺ من أنَّ الله ﷻ أمرنَا بالصلاةِ على نبيه حتى في صلواتنا المفروضة مع أنها ينبغي أن تكون خالصةً لله تعالى وحدَه، لذلك نقرأُ في التحياتِ في قعود الصلاة «السلامُ عليكَ أيها النبي ورحمةُ الله تعالى وبركاتُه»، فسلامُنا على رسولِ الله ﷺ أثناءَ الصلاةِ لا يُبطِلُ الصلاةَ، أما إذا سلمنا على أيِّ شخصٍ آخرَ أثناءَ الصلاةِ فتَبْطُلُ صلاتنا وتجبُ إعادتُها.

والصلاة على النبي ﷺ كانت سر كثير من الفضائل التي نالها أولياء الله تعالى، حتى كانت معراجَهم إلى الدرجات والمقامات العُلا، ولهذه الصلوات فضائل لا يمكن حصره؛ لكننا نورد فيما يلي بعضًا منه:

١. إنَّ طاعةَ العبد لله تعالى ولرسوله ﷺ هي المرادُ بصلاته على النبي ﷺ، وهي -بهذا المعنى- تقابل صلاة الحق ﷻ وصلاة ملائكته على النبي ﷺ وتوافقها، وأما من حيث المعنى فصلاة الله ﷻ على النبي ﷺ ليست كصلاة الملائكة ولا كصلاة العبد، وإنما المرادُ بصلاة الله تعالى على النبي ﷺ تعظيمُه وتشريفه، والمرادُ بصلاة الملائكة الدعاءُ له بالرحمة والمغفرة.

٢. الصلاةُ على النبي ﷺ وسيلةٌ لمحوِ الذنوب والتطهّرِ من الخطايا، فقد ورد في الحديث الشريف:

«من صلّى علي صلاة واحدة صلّى الله عليه عشر صلوات، وحُطت عنه عشر خطيئات، ورُفعت له عشر درجات»[٢٨]

٢٨ النسائي، فضل الصلاة على النبي، ١٢٩٥.

٣. صلاتنا على النبي ﷺوسيلة للقرب منه ﷺ يوم القيامة، يقول النبي ﷺ:

«أولى الناس بي يوم القيامة أكثرهم علي صلاة»[٢٩]

٤. يردُّ نبينُا ﷺ السلامَ على مَن يصلي ويسلمُ عليه، وقد ساق لنا النبي ﷺ هذه البشرى في الحديث الشريف، فقال:

«ما من أحد يسلم علي إلا رد الله علي روحي حتى أرد عليه السلام»[٣٠]

٥. عرض اسم منْ يصلي على النبي ﷺ.يقول النبي ﷺ:

«إن لله ملائكة سياحين في الأرض يبلغوني من أمتي السلام» [٣١]

٦. كلما ازداد المؤمنُ صلاةً على النبي ﷺ ازدادَ تشبُّها به وقرباً منه، وابتعد أكثر فأكثرَ عن العادات الذميمة.

٧. كلما ازداد المؤمن حباً للنبي ﷺ وشغفا به وصلاة عليه ازدادت محبةُ النبي ﷺ له.

---

٢٩ الترمذي، الوتر، ٢١/ ٤٨٤.

٣٠ أبو داود، المناسك، ٢٠٤١ .

٣١ النسائي، السلام على النبي، ١٢٨٢ .

٨. إننا إذ نصلي على النبي الكريم ﷺ إنما نسدد بعضا مما للنبي ﷺ من فضل في أعناقنا، ففضل الله تعالى ونعمه علينا كثيرة لا تحصى، لكّن أعظمها أن جعلنا من أمة محمد ﷺ.

٩. صلاتنا على النبي ﷺ وسيلة لنزول رحمة الله تعالى علينا، وفي ذلك يقولُ النبي ﷺ:

«من صلّى علي واحدة صلّى الله عليه عشراً»[٣٢]

١٠. صلاتنا على النبي ﷺوسيلة لقبول الدعاء:

فقد رأى رسول الله ﷺ رجلًا يومًا يدعو بعد الصلاة دون أن يحمد الله تعالى أو يصلي ويسلم على نبيه فقال:

«**عجلتَ أيها المصلي**». ثم نادى على الرجل، وقال له:

«**إذا صلَّيت فقعدتَ فاحمد الله بما هو أهله، وصلِّ عليَّ ثم ادعُه**»[٣٣]

١١. الصلاة على النبي ﷺ تقي المسلمَ من وعيدِ اللهِ تعالى وسَخَطِهِ، فقد جاءَ في الحديث:

«**رَغِمَ أنف رجل ذُكِرتُ عندَه فلم يصلِّ عليَّ، ...**»[٣٤]

---

٣٢ مسلم، الصلاة، ٧٠/ ٤٠٨.

٣٣ الترمذي، الدعوات، ٦٤/ ٣٤٧٦.

٣٤ مسند الإمام أحمد، ٧٥٤١.

١٢. يكفي اللهُ تعالى المداومين على الصلاة على النبي ﷺ جميعَ همومهم ويرفعُ عنهم كرباتهم، فقد جاء عن الطفيل بن أبي بن كعب، عن أبيه، قال: قلت: يا رسول الله، إني أكثر الصلاة عليك، فكم أجعل لك من صلاتي؟ فقال: «**ما شئت**». قال: قلت: الربع؟، قال: «**ما شئت فإن زدت فهو خير لك**»، قلت: النصف؟، قال: «**ما شئت، فإن زدت فهو خير لك**»، قال: قلت: فالثلثين؟، قال: «**ما شئت، فإن زدت فهو خير لك**»، قلت: أجعل لك صلاتي كلها؟ قال:

«**إذا تُكفى همّك، ويُغفر لك ذنبك**»[٣٥]

وهكذا نرى أن الصلاة على النبي ﷺ تربِطُ المؤمنَ بعلاقةٍ روحيةٍ خاصة مع النبي ﷺ، وتهبه من أنواره وفيوضاته، ولكنَّ ذلك يتوقف على مدى محبة العبدِ للنبي ﷺ وإخلاصِه في صلاته عليه.

وحتى نفوز بأعظم الأجر والثواب من الصلاة على النبي ﷺ فعلينا أن نُسلم قِيَادَنَا لفخر الكائنات ونخضع لعظمته، ونبذل قصارى الجهد حتى نكون أمةً تليق به.

٣٥ الترمذي، القيامة، ٢٣، ٢٤٥٧؛ الحاكم، جـ٢، ٤٥٧/ ٣٥٧٨.

هـ - ذكر الموت:

يريد منا الإسلام أن نعيش كل يوم كأنه آخر يوم في حياتنا، لكن كيف نفهم هذا التوجيه الرباني، وكيف نعقل حكمته.

قد يحدث المسلم نفسه: لو كان هذا آخر يوم في حياتي فسأمضيه كله في الذكر والدعاء، ولكن حياتنا هكذا ستصبح ذكرا ودعاء فقط، لا عمل فيها ولا سعي، ولا إعمار ولا إصلاح، ولا دعوة ولا جهاد، فهل هذا هو حقا ما يريده الإسلام منا؟

إن المقصود من هذه الحكمة تذكر الموت والاستعداد له، لما يبعثه ذلك في النفس من الهمةِ على الطاعة والإخلاص فيها، والهجرِ للمعاصي والتوبة منها، قال رسول الله ﷺ:

«أكثروا ذكر هاذم اللذات، فإنه لم يذكره أحد في ضيق إلا وسع عليه، ولا ذكره في سعة إلا ضيقها عليه»[٣٦]

والدنيا كالظل؛ لن تتمكن أبدًا من اللحاق بها، أو الإمساك بأطرافها، وكلما حاولتَ إدراكها هربتْ منك

---

٣٦ البيهقي، شعب الايمان، ١٠٠٧٦.

وهي عند أطراف أصابعك، أما إذا أعطيتها ظهرك أقبلَت إليك، وإذا تركْتَها ومضيتَ لحقتْ بك، فإذا حاولتَ الفرار منها لم تزل تتعقبك، وتطرح نفسها بين قدميك، ثم إذا فتحت لها أبواب قلبك غلَّقت في وجهك الأبواب، ولم ترَ منها إلا السراب.

وإذا سلَّمْتها زهرةَ نفسك أذبلت في حدائقك الزهور، ولم ترَ منها إلا وحشة التيه والغرور.

وإذا فتحتَ لها خزائن روحك أفقرتْكَ وإن ملَّكتْكَ الدنيا، وصرت كالملك الضليل يُحكَم ولا يَحكُم، ويصير الكون على اتساعه أضيق وأوحش في عينيه من ظلمة القبور.

وهكذا الدنيا تفعل بك الأفاعيل، وتوردك المهالك، وتصَّعَّد بك في متاهات السماء حتى يضيق صدرك، وتهوي بك في مجاهل الأرض حتى تضيق نفسك، وتغرق بك في تيه الدنيا حتى تضل روحك، ولا ينقذك منها سوى ملك الموت حين تأتي اللحظات الحاسمة الرهيبة، فعن ابن عمر ﵄ قال: أتيت النبي ﷺ فقام رجل من الأنصار، فقال: يا نبي الله، من أكيس الناس وأحزم الناس؟ فقال:

«أكثرهم ذكرًا للموت، وأشدهم استعدادًا للموت قبل نزول الموت، أولئك هم الأكياس ذهبوا بشرف الدنيا وكرامة الآخرة».[٣٧]

وقال القرطبي رحمه الله تعالى في كتابه التذكرة: قال العلماء: تذكُّر الموت يردع عن المعاصي ويُليّن القلب القاسي، ويُذهب الفرحَ بالدنيا ويُهوّن المصائب فيها.

وقال أيضاً: قال الدقاق: مَن أكثرَ مِن ذكر الموت أُكرم بثلاثة أشياء: تعجيل التوبة، وقناعة القلب، ونشاط العبادة، ومن نسي الموت عُوقِب بثلاثة أشياء: تسويف التوبة، وترك الرضى بالكفاف، والتكاسل في العبادة.

فالتفكر في الموت هو صافرة الإنذار التي تذكرك بالخطر القادم قبل أن يدهمك، وتنبهك إلى المصير المحتوم قبل أن يفاجئك، فتستعدَّ لما هو قادم، وتدير ظهرك لشواغل الدنيا وشهواتها، وتولِّي وجهك شطر طريق ربك الذي أنت مقبلٌ عليه لا محالة، فتفك عنك قياد النفسانية، وتشحذ همتك بالنفحات الربانية، وتتخذ الإيمان والعمل الصالح عدتك لليوم الآخر.

---

٣٧ ابن ماجة، الزهد، ٣١؛ الطبراني، المعجم الصغير، ١٠٠٨.

وعن طارق بن عبد الله ﵁ قال: قال رسول الله ﷺ:

«**يا طارق، استعد للموت قبل نزول الموت**»[٣٨]

أما كيف نتفكر في الموت، وكيف نجعله نُصب أعيننا، ونعمل استعدادًا لمصيرنا بعده، فهذا ما نتعمله من أفاضل الناس، وصحابة رسول الله ﷺ. فسيدنا أسيد بن حضير ﵁ كان يقول:

«لو أني أكون كما أكون على أحوال ثلاث من أحوالي، لكنت حين أقرأ القرآن وحين أسمعه، وإذا سمعت خطبة رسول الله ﷺ، وإذا شهدتُ جنازة، فما شهدت جنازة قط، فحدثت نفسي بسوى ما هو مفعول بها، وما هي صائرة إليه»[٣٩]

ولكن لا بد من التأكيد على أن يكون العبد معتدلاً في جميع أموره، فيجعل الموت نصب عينيه لينشط في الطاعات، ويكثر التوبة والإنابة إلى الله ﷻ. ويبتعد عن المعاصي حتى لا يبغته الموت وهو يقارف المنكرات فيبوء بسوء الخاتمة أعاذنا الله ﷻ منها، ولا ينبغي

٣٨ الحاكم، المستدرك، جـ٤، ٣٤٧/ ٧٨٦٨.

٣٩ انظر: أحمد، جـ٤، ٣٥١؛ الحاكم، جـ٣، ٣٢٦/ ٥٢٦٠.

للعبد أن يُفرِط ويتجاوز حد الاعتدال فيسيطر التفكير بالموت على عقله ويشغله عن مهامه ونشاطه وعمارته للأرض من كسب وزواج وغير ذلك من شوؤنه، والربط بين العمل للدنيا والاخرة يكون باتباع منهج الإسلام الصحيح الذي بينه القرآن الكريم في قوله تعالى:

﴿**وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا...**﴾ (القصص، ٧٧)،

وقد جمع الأنبياء والصحابة بين الدعوة والعبادات، وعمارة الأرض، والتكسب والزواج. فالأنبياء أفضل البشر وأتقاهم وأعرفهم بالله وأشدهم له خشية، وأعظمهم اشتغالاً بالجهاد والدعوة، والعبادات. ومع ذلك لم يصدهم هذا عن الزواج وطلب الذرية الصالحة.

و- الدعاء

الدعاء مخ العبادة، وسُنة من سُنن النبي ﷺ، وقد اتخذ المتصوفة هذه السُنة أصلا من أصول التربية ووسائلها، والتي يستعين بها المرشد الكامل في توجيه المريد.

وكان الدعاء ديدن النبي ﷺ ودأبه في كل أحواله، فكان من دعاء النبي ﷺ في المرحلة المكية للدعوة قبل الهجرة

حينما كان المسلمون مستضعفين، أن يُعِزَّ الله تعالى الإسلام بأحد العُمَرَين، مع أنهما كانا من أشد الناس ضغينة وحربًا على الإسلام، حتى إن عمر بن الخطاب ﵁ كان عازمًا على قتل النبي ﷺ، لكن بركة الدعاء كانت أسرع إلى قلبه فملأته نورًا وهداية، وحولت نار كراهيته إلى شعلة حماسة وحمية للإسلام.

وفي أثناء حصار الطائف طلب الصحابة من النبي ﷺ أن يدعوَ على قبيلة ثقيف التي أصاب المسلمين كثيرٌ من شرها وأذاها، لكن كيف للنبي ﷺ أن يدعو على أحد وهو الرحمة المهداة؛ فما كان منه إلا أن دعا لهم، فما لبثوا غير يسير حتى جاؤوا مبايعين مسلمين ببركة الدعاء النبوي الكريم لهم ولغيرهم من القبائل والبلدان والأصقاع.[٤٠]

وكان من دعائه أيضًا: «**اللَّهم اهدِ دوسًا وأتِ بهم**» [٤١]

وعن جابر ﵁ أنه سمع النَّبي ﷺ على المنبر نظر نحو اليمن فقال: «**اللَّهم أقبل بقلوبهم**»،ونظر نحو العراق

---

٤٠ الترمذي، المناقب، ٧٣/ ٣٩٤٢؛ ابن هشام، السيرة، جـ٤، ١٠٣.

٤١ البخاري، المغازي، ٧٥؛ أحمد، جـ٢، ٢٤٣؛ ابن سعد، جـ٤، ٢٣٩.

فقال مثل ذلك، ونظر نحو كل أفق فقال مثل ذلك، وقال: «**اللَّهم ارزقنا من تراث الأرض وبارك لنا في مُدِّنا وصاعنا**» (البخاري، الأدب المفرد، ص٢٤٣/ ٤٨٢)

وقد استجاب الله تعالى دعاء سيدنا رسول الله ﷺ، وانتشر الإسلام في كل بقعة من بقاع الأرض.

وعن شيبة بن عثمان قال: خرجت مع رسول اللهِ ﷺ يوم حنين، واللهِ ما أخرجني إسلامٌ ولا معرفةٌ به، ولكن أَبَيتُ أن تظهر هوازنُ على قريش، فقلت وأنا واقف معه: يا محمد إني أرى خيلاً بُلْقًا، فقال: «**يا شيبة إنه لا يراها إلا كافر**»، فضرب يده في صدري ثم قال: «**اللَّهم اهْدِ شيبة**»، فعل بي ذلك ثلاثًا، فو الله ما رفع يده عن صدري الثالثة حتى ما كان أحدٌ من خلق الله أَحبَّ إليَّ منه.[٤٢]

وكانت أم أبي هريرة ترفض دعوات ابنها الكثيرة إلى الإسلام، لكنها في نهاية المطاف اهتدت إلى دين الإسلام ببركة دعاء النبي ﷺ.[٤٣]

---

٤٢ انظر: البداية والنهاية لابن كثير، ٤، ٣٣٣؛ الطبراني، المعجم الكبير، جـ ٧، ص ٢٩٨/ ٧١٩١.

٤٣ انظر: مسلم، فضائل الصحابة، ١٥٨.

ويمتد تأثير بركة الدعاء النبوي -وسيلةً للإصلاح والتربية- إلى دعاء ورثة الأنبياء من الصالحين والأولياء، فالدعاء نعمة ربانية ووسيلة متاحة للجميع، ومستجابة من الجميع، إذا تحققت شروطها، فليس الصالحون فقط هم مستجابوا الدعاء، فالمذنبون أيضًا قد يستجاب دعاؤهم، إذا هم أخلصوا النية فيه، وصدقوا في اللجوء إلى الله تعالى، والخشوع بين يديه، فالله تعالى لا يترك عباده مهما عظمت ذنوبهم.

ونذكر هنا نبذة عن خصائص الدعاء لعلنا نستفيد منها: فقد كان رسول الله ﷺ يوصي المؤمنين دائمًا بالدعاء بعضهم لبعض، سواء أكان في حضورهم أم في غيابهم، فدعاء المسلم لأخيه بظهر الغيب مقبول؛ بل تؤمِّن عليه الملائكة، فعن سيدنا عُمر رضي الله عنه، قال: استأْذنت النبي ﷺ في العمرة، فأذن لي، وقال: «**لا تنسنا يا أُخيَّ من دعائك**»، فقال كلمة ما يسرُّني أنَّ لي بها الدنيا.[44]

ولا شك أن النبي ﷺ هو أشرف المخلوقات عند الله جل جلاله، ومع ذلك فقد كان يطلب نور الخلق ﷺ الدعاء

44 أبو داوود، الوتر، ٢٣/ ١٤٩٨؛ الترمذي، الدعوات، ١٠٩/ ٣٥٦٢؛ ابن ماجه، المناسك، ٥.

من أصحابه، وهي إشارة إلى أهل الدين والعلم الذين وصلوا إلى درجات سامية بأن يستفيدوا من دعاء مَنْ هم أقل منهم مقامًا. وقد قال رسول الله ﷺ لسيدنا عمر رضي الله عنه:

«إن خير التابعين رجل يُقال له أويس، لو أقسم على الله لأبرَّه، فمَنْ لقيه منكم فليستغفر لكم» [٤٥].

وقد التقى سيدنا عمر رضي الله عنه في النهاية بسيدنا أويس القرني وطلب الدعاء منه.

وهكذا نرى أن من وصايا رسول الله ﷺ لأمته طلبُ الدعاء من الصالحين أصحابِ الفضيلة والتقوى من أجل دفع البلاء والغم، وجلب الخير والبركة.

ز- ذكر الصالحين وسيلة للبركة.

من أصول التربية الصوفية ذكر أحوال وأسماء الصالحين في السلسلة الشريفة من حين لآخر، والغاية من ذكرهم أخذ نصيب من الرحمة المرجو نزولها على القلوب عند تذكر أحوالهم، وكان من أقوال سفيان بن عيينة وكبار أهل العلم:

٤٥ انظر: مسلم، فضائل الصحابة، ٢٢٣-٢٢٥.

«عند ذكر الصالحين تنزل الرحمة» [46]

ويقول محمد بن يونس:

«ما رأيت للقلب أنفع من ذكر الصالحين» [47]

فالقصص المعبرة والحوادث المليئة بالحِكم في حياة أولياء الله تعالى تحيي القلوب، وتزيد الميل والرغبة في تقليد تلك الأحوال السامية.

لذلك فإن من وسائل البركة والرحمة العظيمة قراءةُ السلسلة الشريفة من أجل المعية مع الصالحين لا في الظاهر فقط، بل بالقلب أيضًا. والهدف من تأليف الكتب التي تتحدث عن مناقب أولياء الله تعالى إنما هو غرس ذلك الإلهام في قلوب المؤمنين الذين يكنُّون مشاعر المحبة للأولياء، ويقول أبو حنيفة رحمه الله تعالى:

«الحكايات عن العلماء ومحاسنهم أحب إلي من الفقه، لأنها آداب القوم» [48]

---

٤٦ حلية الأولياء، ٧، ٢٨٥؛ الزهد أحمد بن حبنل، ٢٦٤؛ كشف الخفاء، ٢، ٧٠.

٤٧ صفة الصفوة، ١، ١٨.

٤٨ ترتيب المدارك للقاضي عياض، ١، ٢٣.

وقد جاء في القرآن الكريم:

﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ...﴾ [الأنعام: ٩٠]

وقال بعض المشايخ:

«الحكايات جند من جنود الله تعالى، يثبت بها قلوب أوليائه». وشاهِده قوله تعالى:

﴿وَكُلًّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ...﴾ [هود: ١٢٠] [٤٩]

وانطلاقًا من هذه القاعدة القرآنية، فإن قصص الأنبياء والمرسلين والصالحين تصير مصدرًا للموعظة، وينبوعًا للحكمة، وسجلاً للذكرى، وملهمًا للعقول والقلوب، وزادًا للأرواح، ونبراسًا للطريق.

فهي أمثلة واقعية ونماذج حية لأناس جاهدوا، فارتقوا من الثرى إلى الثريا، وارتفعوا من أدنى دركات الدنيا إلى أسمى درجات الجنة في الفردوس الأعلى، وفيهم القدوة والأسوة لكل حال، ولكل موقف يمر به المسلم، فمن أحوالهم يتعلم مجاهدة نفسه، وبهديهم

---

٤٩ ترتيب المدارك للقاضي عياض، ١، ٢٣.

يمارس الدعوة والتربية دون اللجوء إلى الأساليب التربوية الجامدة التي تستخدم عبارات الأمر والزجر مثل: «افعل هذا، ولا تفعل ذاك».

وثمة سبب آخر يوجِبُ قراءة السلسلة الشريفة في أوقات مختلفة، إذ إن قراءتها تجعلك مطلعًا على كل أحوال الصالحين والأولياء الذين اقتبسوا من النور النبوي، وعاشوا في كنف سيرته وسنته ﷺ، فتتجذر محبتهم في قلبك، ويترسخ اتباعهم في روحك، ويتوثق نسبك إليهم وتقوى رابطتك بهم.

حـ. رابطة الحب في الله عَزَّوَجَلَّ:

إن المحبة هي بمثابة الجاذبية المغناطيسية التي تجمع فتات الذرات، فتجعل منها جبالًا، ولو انفرط عقد هذه الجاذبية لانهارت وصارت هباءً منثورًا، فكلما اشتدت محبتك لشخص ما فإنها تشمل بظلالها كل ما يمس هذا الشخص ويرتبط به من أهلٍ وأصدقاء؛ بل كل ما ينتمي إليه من جمادات وأشياء، كذلك كل ما يتصف به من آداب وأخلاق، وكل ما يشبهه من صفات وأشباه ولمحات، وكل ما يذكِّر به من خطرات ونفحات حتى لكأنك

معه في كل حال، وكلما ازدادت هذه المحبة ازدادت «الرابطة» بالمحبوب، والانتماء إليه؛ والأدب معه.

ولا نعرف حبا في الدنيا يقارب حب الصحابة للنبي ﷺ ، فقد جاء عبد الله بن زيد الأنصاري رضي الله عنه إلى رسول الله ﷺ وقال له:

«يا رسول الله! أنت أحبُّ إليَّ من نفسي ومالي وأولادي وأهلي، ولولا نعمة رؤيتك لما أردت إلا الموت»، ثم بكى.

فسأله النبي ﷺ: «**ما يبكيك يا عبد الله؟**»

فأجاب: «يا رسول الله، إذا مُتَّ كنتَ في علِّيِين لا نراك ولا نجتمع بك». فسكت رسول الرحمة ﷺ، وفي تلك الأثناء نزلت عليه الآية الكريمة:

﴿وَمَنْ يُطِعِ اللهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا﴾ (النساء، ٦٩)

ولذلك ما سر الصحابة بحديث مثل ما سروا بقول النبي ﷺ: «**المرء مع مَنْ أحب**»[٥٠]

٥٠ البخاري، الأدب، ٩٦.

وبينما كان عبد الله بن زيد الأنصاري ﷺ يعمل في أرضه، أتاه ابنه منقطع الأنفاس ليخبره بكل أسى وفاة رسول الله ﷺ، فلما سمع الأنصاري هذا الخبر دعا قائلاً:

«اللَّهم أعمني فلا أرى شيئًا بعد حبيبي حتى ألقى حبيبي، فعمي مكانه»[٥١]

من هنا نجد أنّ جوهر التصوف وغايته ودافعه لا يخرج عن المحبة والأدب والرابطة، فالحافز الأساسي الذي يدفع إلى السير في الطريق والسلوك فيه هو «المحبة»، والهدف الذي يبتغيه السالك هو «الأدب»، والزاد والواسطة والمطية هي «الرابطة»؛ إذًا فالمحبة والرابطة في التصوف رأس الأمر وعموده.

فهذه المحبة إذا وُجدت في قلب المريد لمرشده الكامل، فسوف تمد ظلالها على أقارب الشيخ والمنتمين إليه والمتصفين بصفاته، والمشابهين له في سلوكه وحركاته؛ بل إن هذا المريد يزداد سعادة وهناءً؛ إذ ما امتلك شيئًا من حاجيات وأشياء شيخه، ويذكرنا ذلك بالشعور الذي شعر به سيدنا أويس القرني حين

٥١ انظر: القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، جـ٥، ٢٧١.

تلقَّى خرقة النبي ﷺ التي أُرسِلت إليه.[٥٢] ، ولكن لابد أن نعلم هنا أن هذه المحبة ليست هي المغاية والمقصود.

وهذا يجرنا إلى الحديث عن مصطلَحين صوفيين هما: «العشق المطلق»[٥٣] و«العشق المجازي».

«العشق المطلق» هو المحبة التي تشمل الجميع، وهو كالدائرة التي يقع المحبوب في مركزها، وتتسع إلى ما لانهاية لتشمل جميع من حول المركز سواء كان قريبًا أم بعيدًا، وهذا ما وصفه يونس أمْرَه حين قال:

أيها الإنسان تسامح مع المخلوقِ

ليس من أجله بل من أجل الخالقِ

وهذا يعني احتضان جميع مخلوقات الله تعالى -احترامًا وتبجيلاً للخالق ﷻ-بالمحبة والرحمة مهما كانت صفاتها وماهيتها وأعمالها، وهذه آخر المراحل التي قد يصل إليها العاشق، وأما الأحوال التي يكون

---

٥٢ تذكرة الأولياء، ٢١.

٥٣ يبيِّن القرآن الكريم للمؤمنين في الآية الكريمة ﴿**وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لله**﴾ (البقرة: ١٦٥) ضرورة أن تكون محبة الله تعالى في قمة درجات الحب، وهذه الدرجة من المحبة هي ما نطلق عليه «العشق الإلهي».

فيها قبل وصوله -تدريجيًّا- إلى هذه المرحلة فتسمى بـ«العشق المجازي».

ويبدأ هذا «العشق المجازي» حين يرتبط السالك بمرشده بالمحبة والعشق، وهو عشق «مجازي»؛ لأن القلب المخصوص لله تعالى لن يجد معشوقًا حقيقيًّا غيره ﷻ، أما المحبوبون الآخرون والأحوال التي يعيشها العبد فهي بمثابة درجات سلَّم الصعود إلى القصر، وهي في حكم تحضير القلب لمحبة الله تعالى، وهي السعي للانتقال من «ليلى» إلى «المولى» بحسب تعبير الشعراء، وأفضل المراحل في هذا السعي وأكثرها فيوضات هي حين اللقاء بالمرشد الكامل الحقيقي، والشعور بالارتياح المعنوي في محبته والأُنس به، وأحسن تجلياته هي الرابطة، والرابطة هي الوصول إلى أشد درجات المحبة التي لا تُقاس بغيرها من العلاقات البسيطة العادية، فالرابطة هي الحفاظ على المحبة حيَّة نديَّة في القلوب دائما.

والمعنى اللغوي للرابطة هو العلاقة والتجمع والتوحد والارتباط، وعلى ذلك فإن جميع الكائنات في الوجود لها رابطة، فجميع المخلوقات مرتبطة ببعضها

البعض، ليس فقط رباطًا عضويًا فيزيائيًا أو بيولوجيًا، إنما هو رباط قلبي شعوري، نستطيع أن نمثلها بالرابطة الموجودة لدى الوالدَين تجاه أولادهم، والأولاد تجاه والديهم، والمرء تجاه مَنْ يتَّخذه قدوة لنفسه، ولولا الرابطة لما وُجدت الحياة في المجتمع، ولما كابدت الأمهات صعوبة تربية الصغار، ولانقطعت في النهاية السلسلة التي تربط الأحياء بعضها ببعض، وإذا كانت هناك رابطة محبة طبيعية في مثل هذه الأمور الدنيوية الفانية، أفلا تكون هناك رابطة في العالم الروحاني؟

وللرابطة أنواع ثلاثة:

- **الرابطة الطبيعية**: وهي كلُّ محبةٍ يشعر بها المرءُ تجاه أهله وأقاربه، كتلك المحبة التي تُفطَر عليها الأم تجاه ابنها.

- **الرابطة الشهوانية (السفلية)**: وهي تلك التي تربط الإنسان بما تميل إليه نفسه وتشتهيه من ملذاتٍ محرمةٍ وميولٍ دنيئة، فعقلُ المقامر وقلبُه مثلا يكونان في حال انشغالٍ دائم بالقمار حتى إنه ينسيه نفسه وأهله.

- **الرابطة الشريفة** (الرابطة الصوفية): وهي التعلُّق بالوسائل والطرق التي ترتقي بالإنسان في مرضاة الله تعالى عبر المفاهيم المقدسة والمشاعر السامية.

وهذا النوع الثالث من الرابطة هو المقصود في العلاقة بين المريد ومرشده الكامل؛ إذ يجب على المريد أن يمكِّن قلبه من محبة شيخه ومرشده، ويتأدب معه، ويرتبط به، كي يكون أهلًا لتلقي إرشاد الشيخ، والتدرج على يديه، والارتقاء بواسطته، ونيل الفيوضات منه، فالمحافظة على نضج هذه المحبة والاحترام والتبجيل للمرشد دائمًا يُكسِب المريدَ حيوية معنوية، وهمة في سلوك الطريق.

ولعل المثال الأشهر على هذه الرابطة العلوية، هو محبة الصحابة الكرام ﭫ للنبي ﷺ، والذي كان أبرزهم في محبة النبي ﷺ سيدنا أبو بكر الصديق ﭬ.

وبفضل الارتباط القلبي بين الصحابة ورسول الله ﷺ انعكست أحوال النبي ﷺ على الصحابة، فتخلقوا بأخلاقه، وكانوا في معية النبي ﷺ حالاً وعملاً وإحساسًا وفكرًا حتى في غيابه، وتأدبوا بين يديه حتى كانوا لا يقدمون عليه شيئا أبدا، ولأنهم فهموا معنى الحديث الشريف: «**المرء مع مَنْ أحب**»[٥٤] وعملوا بمحتواه،

٥٤ البخاري، الأدب، ٩٦.

استطاع الصحابة الكرام أن ينالوا لذة التضحية في سبيل النبي ﷺ بكل إخلاص، وكان قولهم «فداك أبي وأمي يا رسول الله!»، عرفانًا بالشكر والمنة له في قلوبهم، فكان ذلك لطفًا وكرمًا من الله ﷻ لهم ببركة تلك المعية القلبية.

وحين أسر مشركو مكة خبيبًا رضي الله عنه، لم يطلب إلا طلبًا واحدًا وهو السلام على رسول الله ﷺ... لكن لم يكن عنده من يرسل سلامه هذا للنبي ﷺ! فرفع عينيه بحزن إلى السماء ودعا قائلاً:

«اللهم إني لا أرى إلا وجه عدو، اللهم إنه ليس ها هنا أحدٌ يبلغ رسولك السلام عني، فبلِّغه أنت عني السلام!»

وفي ذلك الحين كان رسول الله ﷺ جالسًا مع أصحابه، فأخذه كما كان يأخذه إذا نزل عليه الوحي.

ثم قال: «**وعليه السلام ورحمة الله**»،

ثم قال ﷺ: «**هذا جبريل يُقرئني من خبيب السلام**»[٥٥].

فعلى هذه الصورة كانت الصحبة القلبية لدى الصحابة الكرام في غياب رسول الله ﷺ، وكأنهم كانوا في أجساد مختلفة لكن على قلب واحد.

٥٥ الواقدي، المغازي، جـ١، ص٣٦١.

ويشير سيدنا الحسن سبط النبي ﷺ إلى أهمية موقع الرابطة في التكامل المعنوي، حين وصف سيدنا الحسن رضي الله عنه حالته الروحية التي كان فيها وهو يسأل خاله هند بن أبي هالة عن حلية النبي ﷺ فقال:

«سألت خالي هند بن أبي هالة، وكان وصَّافًا عن حلية رسول الله ﷺ، وأنا أشتهي أن يصف لي منها شيئًا»[٥٦]

إن كلام سيدنا الحسن رضي الله عنه يدل بالفعل على الرابطة؛ لأن الاستماع إلى وصف النبي ﷺ من أفضل الوسائل لتأسيس رابطة قلبية معه، وهذا يعني أن الرابطة التي هي من أصول التصوف مأخوذة من عمل النبي ﷺ وأصحابه.

إن الرابطة التي تُعدُّ إحدى طرائق التربية الصوفية، هي مظهر من مظاهر المحبة التي تُكوِّن جوهر المخلوق، وهي التي تحافظ على نضج المحبة وحيويتها، وتختلف أسماء الرابطة وطرق ممارستها من طريقة صوفية إلى أخرى، لكن المريد عمومًا يستحضر صورة مرشده أمام عينيه، ويتذكَّر حاله وسلوكه، ليصير مع حال مرشده من خلال المشاعر السامية الراقية، وبمعنى آخر، يسعى المريد لتقليد مرشده في أعماله الصالحة وأحواله

٥٦ الترمذي، الشمائل، ص١٠.

السامية عبر المحافظة على المحبة التي يشعر بها تجاه مرشده في قلبه دائمًا وأبدًا.

بيد أن التجاوز في مقدار المحبة التي تُعدُّ أساس الرابطة، تجرُّ المرء إلى الإفراط؛ لهذا السبب، ليست الرابطة تجاوز الحدود في السلوك لحد إسباغ الألوهية إلى المرشد الـمُتَّبع، حفظنا الله تعالى من ذلك، فمثل هذه المحبة تُوقِع العبد في مصيدة الشرك.

ويجب ألا ننسى أن كل عبد سوى الأنبياء عاجزٌ وضعيف، ومهما كان من الضروري إظهار المحبة والاحترام والتبجيل لكبار أهل التصوف والصلاح، فمن الضروري الحذر غاية الحذر من المبالغة في تعظيمهم، كي يصون العبد نفسه من خلال مراعاته للحدود الشرعية.

وحين توفِّي الصحابي عثمان بن مظعون وقد كان مشهورًا بزهده وعبادته في المدينة، قالت أم العلاء ﵂: «رحمة الله عليك أبا السائب، فشهادتي عليك لقد أكرمك الله»، فقال رسول الله ﷺ: «**وما يدريكِ؟**»، قلت: «لا أدري والله»، قال ﷺ: «**أما هو فقد جاءه اليقين، إني لأرجو له الخير من الله، واللهِ ما أدري –وأنا رسول الله–**

ما يُفعل بي ولا بكم»، قالت أم العلاء رضي الله عنها: «**فوالله لا أُزكِّي أحدًا بعده**» (البخاري، التعبير، ٢٧)

- **الرابطة تحافظ على الحال**

ثمة مصطلحٌ في علم النفس والتربية يُدعى «انتقال الشخصية»، ويدخل في معناه التأثيرات الإيجابية والسلبية التي تتلقاها الشخصية وتختارها أسوة لها، ومن رحمة الله سبحانه لنا أن حدد لنا الاختيار الصحيح، وترك لنا حرية اتباعه، فقال في القرآن الكريم:

﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ**﴾

(التوبة، ١١٩)

وعندما نمعن النظر والتأمل في بلاغة الأمر القرآني ودلالاته، نجد الحق تبارك وتعالى لم يأمر المؤمنين بأن « كونوا صادقين» في إيمانهم حتى يحافظوا على تقواهم ودرجة الإيمان التي وصلوا إليها؛ بل كان الأمر الإلهي ﴿**كُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ**﴾ فوجههم إلى بداية الطريق، وأول السلم الصاعد إلى مراتب الصدق والصادقين والصديقين، وهو صحبة الصادقين ومحبتهم، والأنس بهم، واقتفاء آثارهم، والسير على منهاجهم، والحياة

على منوالهم، لتكون النتيجة الطبيعية لذلك هي وصول المؤمن إلى درجة الصدق ومرتبة الصادقين.

- **الرابطة ليست مسألة اعتقادية**

إن الرابطة -التي تُعدُّ من الأصول المهمة جدًا في التربية الصوفية- موجودة في الطرق كلها تقريبًا مهما كان الاختلاف بينها في الاسم وطريقة التطبيق، بيد أن الرابطة -بدءًا من القرن التاسع عشر- وضعها بعض الأشخاص ضمن مسائل الإيمان والكفر، وهذا ما عرَّضها للانتقاد الشديد، مع أن الرابطة -كما ذكرنا سابقًا- حالة طبيعية أثبتها علم النفس، ولا علاقة لها أبدًا بالاعتقاد، ويقول عبيد الله أحرار في هذا الموضوع:

«ألا يقع المرء في الكفر حين يكون قلبه معلَّقًا بالمال والمُلك وما شابههما من الرغبات الدنيوية النفسانية؟ فهل يكون مخطئًا حين يكون قلبه مرتبطًا بمؤمن ويشعر بالمحبة تجاهه؟»[٥٧]

---

٥٧ رشحات عين الحياة ٢، ٦٣٦.



الركن الثالث

الصحبة

العابد الذكي والسالك الحصيف ينبغي أن يكون شديد الحرص على مجالس الصادقين وصحبة الأولياء ومعية الصالحين، فهي كُنوز لا تُقدَّر بثمن، وجِنان وارفات تؤتي أُكلَها كلَّ حين، وعيون فياضة بالماء السلسبيل، وهي السبيل لوقاية القلب من وساوس النفس وفتن الدنيا، حتى يكون في مأمن أمين وحصن حصين، لا يناله إلا الخير؛ إذ هو أضعف الأعضاء مقاومة، وأشدها تأثرًا بما حولها، وأميلها إلى اتباع الدنيا وما فيها.

٣- الركن الثالث، الصحبة:

مجالس الذكر والصحبة في الدنيا هي رياض الجنة، تتنزل عليها الملائكة، وتغشاها الرحمة، وتظللها السكينة.

عن أبي هريرة ﵁، عن النبي ﷺ قال:

«ما اجتمع قوم في بيت من بيوت الله تعالى، يتلون كتاب الله ويتدارسونه بينهم، إلا نزلت عليهم السكينة، وغشيتهم الرحمة، وحفتهم الملائكة، وذكرهم الله فيمن عنده»[٥٨]

لقد كانت قلوب أهل الجزيرة العربية في جاهليتهم مثل باديتهم، أرضًا بلقعًا جرداءَ لا نبات فيها ولا ماء، وكانت تعيش هذه القلوب في ظلمات بعضها فوق بعض، تحجب ما بقي فيها من خير، لكنها ما إن نعمت بصحبة النبي ﷺ حتى وجدت الظل والندى، والخير والنور والهدى، ووجدت الرواء بعد الصدى،

٥٨ ابو داوود، قراءة القران، ١٤٥٥.

وانغرست في هذه الصحراء نخلاً باسقات من القيم، وأنبتت ما كان في أعماقها من بذور للأخلاق، فتحولت صحراء الجاهلية إلى روضة الإسلام، وفاضت عليها بركات الصحبة النبوية، والمعية المحمدية، والمحبة المصطفوية، فتبدلت الأحوال، وانعكست الأهوال، فالأيدي التي وأدت بناتها أحياءً علمت أهل الأرض بعد ذلك كيف تكون الرأفة، والقلوب التي قدت من حجر صارت آيات في الرحمة، والأرواح القاحلة التي استمدت من الصحراء قسوتها صارت مضرب المثل في ندواتها ورقتها ورهافتها.

فالقلوب تحتاج إلى مجالس الذكر والصحبة أكثر من حاجة الأرض إلى المطر، فإن غيث القلوب هو العلم، وغيث الأرض هو المطر، فالأرض إذا حُبس عنها المطر أجدبت وأقحلت وتغير شكلها ولم تؤتِ خيراً، وكذلك القلوب إذا حُرمت سماع العلم والذكر فإنها تجدب وتقسو ولا يأتي منها خير.

أما إذا نزل الماء على الأرض فتراها اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج، وكذلك قلوب أهل الإيمان إذا نزل عليها العلم، وسمعت الذكر والموعظة اهتزت

كما تهتز الأرض، تهتز وتضطرب، وتخاف وترجو، وتشفق وترغب، ثم بعد هذه الحركة القلبية تزداد إيماناً، ولقد قال الله ﷻ في الأرض:

﴿... وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ﴾ (الحج، ٥)

وقال في قلوب المؤمنين:

﴿... وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا..﴾ (الأنفال، ٢)

فالقلوب -حينما تسمع العلم والذكرى- تبتعد عما حرم الله ﷻ من المعاصي، وتُنبت من كل زوج بهيج من العمل الصالح، لذلك فإن من الضروري أن يحرص المسلم على حضور مجالس العلم والذكر ومتابعتها، وأن يجعلها في صلب برنامجه اليومي، ولا يقصيها فيجعلها في هامش حياته، فإن تيسرت حضر وإن لم تتيسر لم يحضر، وإنما يجعلها شيئاً رئيسياً وضرورياً في حياته؛ كطعامه وشرابه، لأنها غذاء لقلبه.

وفي هذا السياق ينبغي أن نلفت الأنظار إلى أن الاشتقاق اللغوي العربي لكلمتي «الصحابي» و«الصحبة» من جذر لغوي واحد، ولعل في ذلك إشارة

واضحة إلى قوة تأثير الصحبة في التربية والترقية؛ إذ صار الصحابة الكرام رضوان الله عليهم كنجوم السماء في الظلمات، بأيهم اقتدينا اهتدينا، لأنهم كانوا في صحبة النبي ﷺ ماديًا ومعنويًا، وعرفوا للصحبة حقوقها، وطبقوا شروطها، فكانوا بحق نماذج لورثة الأنبياء، بعدما جعلوا من قلوبهم وعقولهم أوعية تتلقى الفيوضات النبوية، وسجلات يُسطَّر فيها العلم النبوي، ونبراسًا يشع نوره إلى كل الخلائق إلى يوم القيامة و فيهم يقول الله ﷻ:

﴿وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ (التوبة، ١٠٠)

وكل صحبة تجتمع على طاعة، وترتبط بمحبة ربانية، وتمتلئ بفيوضات روحانية، ما هي إلا انعكاس لصحبة رسول الله ﷺ، وحلقة في سلسلة شريفة مركزها صحبة رسول الله ﷺ؛ بل وتقتبس نورها وفيضها من رسول الله ﷺ ذاته عبر انعكاسها من خلال أولياء الله تعالى؛ لأن ذلك النور الساري يشع من المركز النبوي مباشرة إليها، وما

الأولياء والمرشدون إلا قنوات يسري فيها ذلك النور، فأصل النور واحد، وكل الأنوار -مهما بعدت الشُقة- ما هي إلا قبس من ذلك الأصل وامتداد له.

وللصحبة معنى آخر هو «الخطاب»، أي: الحديث الذي يتوجه به الصاحب إلى صاحبه في مجالس الذكر والصحبة، فذلك الخطاب هو أحد أهم الوسائل التي يستخدمها المرشد الكامل للتأثير فى المريدين السالكين وتربية أرواحهم وترقية قلوبهم، فذلك المرشد صاحب القلب السليم والروح الطاهرة والنفس الزكية لابد وأن تحمل كلماته روح التربية، ويفتح خطابه مغاليق القلوب، وتفيض توجيهاته بمشاعر الإخلاص والحب لمريديه، فتتجاوز كلماته الآذان لتصل إلى القلوب، ثم تنساب لتتغلغل أعماق الجوارح والجنان.

وثمة عوامل تقوِّي من تأثير الخطاب والصحبة؛ يأتي على رأسها «الإخلاص»، فالإخلاص هو أصلُ كلِّ عملٍ وفرعُه وجوهرُه، وهو مناط القبول عند الله تعالى، والمرشدون المخلصون -بوصفهم ورثةً للأنبياء- إنما يبتغون من خطابهم توصيل البلاغ النبوي إلى المريدين، قيامًا بواجبهم في حمل الرسالة وأداء الأمانة.

كما ينبغي أن يتحقق الإخلاص أيضًا في المريد المتلقي لهذا الخطاب؛ ليكون شديد الحرص على تنفيذ ما يسمعه.

والعامل الثاني المقوِّي لتأثير الخطاب والصحبة هو «الإيجاز»، فالإيجاز أصل البلاغة، وأحد ملامح الإعجاز في الخطاب والأدب، وعندما يختار الناصح والمرشد أبلغَ الكلمات وأوجزها في خطابه، يكون ذلك أكثر تأثيرًا في السامع وأحرى به في استيعابها وتنفيذها.

ولعل أسمى مثالٍ على ذلك بلاغة القرآن الكريم، فالإيجاز هو أبرز مظاهر الإعجاز فيه.

فهذا البيان البليغ الموجز مع الإخلاص في الصحبة والخطاب هو الذي جعل لهما التأثير الأكبر في الإرشاد وتربية المريدين، فإذا أردنا أن ندرك ذلك بوضوح تام، فليس أنصع وأوضح من المثال الأعظم للبشرية في بركة الصحبة، وهم الصحابة رضوان الله تعالى عليهم، مع النبي ﷺ، ولعل ذلك هو السبب في أن المؤرخين الأتراك أطلقوا على تلك الفترة الزمنية اسم «عصر السعادة».

وليس أنفع ولا أنجع ولا أروع للمسلم من صحبة هؤلاء الصالحين والأولياء والمرشدين الكاملين، لأن

المسلم إن لم يصحب هؤلاء فإنه سيصحب الفارغين والضائعين والغافلين؛ فالطبيعة البشرية تبحث دائمًا عمَنْ تصاحبه، وتعيش في كنفه، وعن جماعة ترتبط بها، وتحيا في ظلالها، وهو ما عبر عنه المثل القائل:

«الطبيعة لا تعرف الفراغ».

ومع أهمية الصحبة وما يجنيه المسلم منها، فإن هناك من يرفضها وينتقدها، بحجة أنه لا حاجة لنا للعباد الصادقين، فالقرآن يكفينا، ولدينا العقل الذي نعرف به معاني القرآن ونفسره.

لكن هذا منطق المهووسين بهوى النفس، والمسحورين بأسطورة العقل البشري، الذين ضاق أفقهم فلم يبصروا ولم يدركوا سوى ما تمليه عليهم حواسُّهم القاصرة، وعلومهم الوضعية المحدودة، ونسى هؤلاء أن القلب هو الذي يستطيع معرفة معاني القرآن، وأن فيوضات الصالحين هي التي تنير لهم حقائق القرآن، وأن العلوم الوضعية إنما تقيس الظواهر، ولا تعرف البواطن، ولا يمكن إخضاع كل شيء للبحث والتجربة والاختبار المادي، ولا حتى للتفكير العقلي أو المنطق العلمي، فعقل الإنسان محدود، وحواسه قاصرة، وعمره

قصير، وعليه أن يستفيد من تَرَاكُم الخبرات التي سبقته، والتي استغرقت دهورًا طويلة، وتجارب مديدة، وعقولاً وقلوبًا لا حصر لها.

إنَّ صحبة الصالحين والصادقين في عملية تهذيب النفس هي كالإشعاعات التي لا يمكن رؤيتها بالعين المجردة، لكن تأثيرها لا يخفى على أحد، فالجلوس في جوار الصالحين، ومراقبة أحوالهم وسلوكهم، وحتى النظر إلى وجوههم النورانية يُذكِّر الإنسان بالله تعالى، وتكون وسيلةً للاغتراف من أخلاقهم الحميدة، لذا، يُعدُّ الوجود في حضرة كبار أهل الدين والروحانية نعمة كبيرة للعبد؛ لأن الأحوال -كما ذكرنا- تنتقل من شخص لآخر، فكما تَعْلَقُ رائحة الورود في لباس المرء حين يتجول في حديقة مليئة بالزهور، كذلك الحال في مجالس الصالحين، تنعكس وتتبادل فيها الحالات المعنوية الروحانية.

ويقول الشيخ عبيد الله أحرار:

«إن الأمر الذي جاء حين قال الله تعالى: ﴿**كُونُوا مَعَ**﴾ في الآية الكريمة ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ**﴾ تعني الصحبة والمعية دائمًا، أي إن للمعية

وجهين؛ لأنها ذُكرت بصراحة، أحدهما فعلي والآخر اعتباري، والمعية الفعلية هي وجود العبد فعلاً في مجالس الصادقين بقلب حاضر، أما المعية الاعتبارية فهي تخيُّل أحوال الصادقين في غَيْبَتهم».

إذًا، فكما أنه من الضروري أدبًا التحلي بالمشاعر السامية الراقية حين يكون العبد في صحبة ظاهرية مع أولياء الله تعالى، كذلك يجب عليه الاستمرار على هذا الحال بصحبة قلبية حين لا يكون مع الأولياء؛ لأن الصحبة الفعلية مع أولياء الله تعالى قد لا تُتاح في كل وقت، وفي هذا الوضع ثمة حاجة للرابطة كي تستمر الصحبة القلبية.

إن غاية الرابطة هنا وهدفها الواضح هو التعلق بحبل الله تعالى، والنجاة من الطوفان بركوب سفينة رسول الله ﷺ، والاتصال بالسند النبوي عبر السلسلة الطاهرة من أولياء الله الذين توارثوا النور والأخلاق والصحبة كابرًا عن كابر، في سلسلة تمتد إلى رسول الله ﷺ ، فيما يشبه نور الشمس التي تعكسها الأقمار على كل كواكب المجموعة الشمسية، على حسب درجة قرب الأقمار وبُعدها من الشمس والكواكب.

وإذا ما كانت هناك صحبة بالجسد إلى جانب الصحبة المعنوية مع أولياء الله تعالى، فهي «نور على نور».

إلا أن الاقتصار على الصحبة الفعلية الجسدية في التربية الصوفية غير مقبول؛ لأن الإنسان قد يقف أمام المرشد الكامل دائمًا، ولكنه لا يحظى بأي مشاعر بسبب غفلته، في حين نرى أن المريد الحقيقي وإن كان في بلاد بعيدة عن مرشده ينال ما يناله من فيوضات كثيرة، وذلك عبر مشاعر الاحترام والتبجيل التي يكنُّها لمرشده، والعشق والشوق له والارتباط معه.

ومن أقوال كبار أهل التصوف في هذا المعنى:

«مَنْ في اليمن جنبي، ومَنْ جنبي في اليمن»،

لهذا فإن الأمر المهم هو عدم فقدان مشاعر الصحبة القلبية مهما كان المكان الذي أنت فيه.

يقول رسول الله ﷺ:

«إن أولى الناس بي المتقون، مَنْ كانوا، وحيث كانوا» [٥٩]

والتدفق المعنوي الذي ينتقل فيه الحال من المرشد إلى المريد، ترتبط قوته ودرجته بمدى إدراك المرشد

---

٥٩ مسند أحمد بن حنبل، ٥، ٢٣٥؛ مجمع الزوائد للهيثمي،، ٩، ٢٢.

الكامل، وبمستوى استعداد المريد ومحبته، ومع ذلك فإن هذه الرابطة لا تعد كافية وحدها في ذلك السياق للإصلاح، فالدرجات والمستويات في التصوف لا يصل إليها المريد لمجرد كونه مريدًا؛ بل مستواه في الدرجة مرتبط بمستواه في الاستعداد، وبمستواه في المحبة، ومن هنا تتفاوت المستويات بين المريد وبين أخيه في الطريق نفسه، وفي زمرة المرشد نفسه، فالمرشدون الكاملون مهما تفاوتت مقاديرهم في الدرجات والفيوضات هم بالنسبة إلى المريدين كالبحيرة الفياضة، أو كالبحر الزاخر، أو كالمحيط الواسع، والمريد الذي يريد أن يملأ دلوه من ذلك الماء يملؤه حسب قدرة دلوه على الامتلاء، وليس بحسب كثرة الماء في ذلك البحر؛ إذًا فاستعداد المريد هنا هو مناط الفيوضات.

والعابد الذكي والسالك الحصيف ينبغي أن يكون شديد الحرص على مجالس الصادقين وصحبة الأولياء ومعية الصالحين، فهي كنوز لا تُقدَّر بثمن، وجِنان وارفات تؤتي أُكُلَها كلَّ حين، وعيون فياضة بالماء السلسبيل، وهي السبيل لوقاية القلب من فتن النفس وسهام الدنيا، فيكون القلب في مأمن أمين وحصن

حصين، لا يناله إلا الخير؛ إذ هو أضعف الأعضاء مقاومة، وأشدها تأثرًا بما حولها، وأميلها إلى اتباع الدنيا وما فيها.

فأهل الصلاح والقلوب، وأهل المعرفة والمعالي، تُفيض جوارحُهم في مجالس الصحبة على أهل الاستعداد فيوضاتِ المحبة والعشق والوجد والأنوار والأسرار؛ كأنها نسائم الصباح التي تسري على جنة غنَّاء فتحمل في نداها من عبير ونعيم تلك الجنة إلى أنوف وصدور وأرواح من تيقظ واستعد وفتح صدره وروحه لاستنشاق ذلك العبير، واسترواح ذلك النعيم الرباني.

يقول المولى ﷻ في الآية الكريمة:

﴿وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَى تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (الذاريات، ٥٥)

ويقول النبي ﷺ الذي أدرك المعنى الكامل لهذه الآية الكريمة:

«الدين النصيحة»[٦٠]

وللنصيحة معنيَان، أحدهما الدعوة للخير، والآخر هو الإخلاص.

---

٦٠ البخاري، الإيمان، ٤٢.

وكان عبد الله بن رواحة ﵁ إذا لقي الرجل من أصحابه يقول له: «تعال نؤمن بربنا ساعة»، فقالها ذات يوم لرجل، فغضب الرجل، وجاء إلى النبي ﷺ فقال:

«يا رسول الله ألا ترى إلى ابن رواحة يرغب عن إيمانك إلى إيمان ساعة» فقال النبي ﷺ:

«يرحم الله ابن رواحة إنه يحب المجالس التي تباهي بها الملائكة عليهم السلام»[٦١]

ويدلُّ على الأهمية الكبيرة للصحبة ما رواه أبو سعيد الخدري أنه قالت النساء للنبي ﷺ:

«غلَبَنا عليك الرجالُ، فاجعل لنا يومًا من نفسك»، فوعدهن يومًا لقيهنَّ فيه، فوعظهنَّ وأمرهنَّ.[٦٢]

وكانت الصحابيات -اللواتي هن قدوة للأمهات جميعًا- يعلَمْنَ جيدًا قيمة الصحبة وما فيها من بركة، فكنَّ ينبِّهن أولادهن إذا ما تأخروا عن الذهاب إلى رسول الله ﷺ، ويقول حذيفة ﵁:

«سألتني أمي: منذ متى عهدك بالنبي ﷺ؟»

---

٦١ انظر: مسند أحمد بن حنبل، ٣، ٢٦٥.

٦٢ البخاري، العلم، ٣٦.

قال: «فقلت لها منذ كذا وكذا»

قال: «فنالت مني وسبتني»

قال: «فقلت لها دعيني فإني آتي النبي ﷺ، فأصلي معه المغرب، ثم لا أدعه حتى يستغفر لي ولك»[٦٣]

وكان الشيخ محمد ضياء الدين رحمه الله وهو من كبار العلماء، يجمع الفتيان الصغار بين الحين والآخر ويجلس معهم، فسألته زوجته في أحد الأيام:

«إن هؤلاء ما زالوا صغارًا، أنَّى لهم أن يفهموا معنى الصحبة؟»

فأجابها الشيخ: «وهؤلاء أيضًا يستفيدون، قليلًا كان أو كثيرًا، لكن مقصودي ليس أن يفهموا شيئًا ما بعينه، إن مجالس الصحبة تستنزِل رحمة الله تعالى، وأنا أسعى لتلك الرحمة، وهؤلاء الفتيان وسيلة لذلك...»

ويقول الشيخ نقشبند رحمه الله:

«حين يكون المرء مع الخلق ويقدِّم لهم الخدمات، يحظى بطمأنينة قلبية أكثر من تلك التي يحظى بها حين

---

٦٣ الترمذي، المناقب، ٣٠؛ مسند أحمد بن حنبل، ٥، ٣٩١-٣٩٢

يكون في الخلوة، (أي إنه يدرك الوحدة في الكثرة، وإذا استطاع أن يكون مع الله تعالى حين يكون بين الناس، فإن القلب سيطمئن أكثر)، ولا ينكشف العالم القلبي في طريقتنا إلا بهذه الصورة، إذ إن طريقتنا في التربية قائمة على الصحبة، ففي الخلوة شهرة، والشهرة آفة، وكل الخير والبركة في المعية والاجتماع، ولا يمكن الاجتماع إلا بالصحبة، وتحقق هذا الحال منوط بكون الصحبة نافعة ومفيدة، ولا يكون المرء في صحبة مع غيره إلا إذا ترك الأنا وهجر ذاته.»

ويوضِّح الشيخ جعفر بن سليمان رحمه الله ما كان يحظى به حين يكون في صحبة الصالحين قائلاً:

«كنت إذا فترتُ في العمل نظرتُ إلى محمد بن واسع وإقباله على الطاعة؛ فيرجع إليَّ نشاطي في العبادة، ويفارقني الكسل، فأنشط في العبادة أسبوعًا»[٦٤].

وكان عمر بن عبد العزيز رحمه الله يقول:

«كان حضور مجلس الفقيه عبيد الله بن عبد الله –وهو من فقهاء المدينة– أحبَّ إليَّ من الدنيا وما فيها، فبصحبة

٦٤ إحياء علوم الدين، ٢، ١٨٤.

مثل هؤلاء وملازمتهم تتفتح العقول، وتطمئن القلوب، وينال المرء الأدب».

وذات مرة غاب أحد مريدي الشيخ عبد الخالق غجدواني عن مجالسه لمدة طويلة، وكان هذا المريد يرى في منامه في كل ليلة أنَّ مجموعةً من الناس يأتون إليه ويقولون له:

«لقد وصلت إلى الكمال الآن، دعنا نحملك إلى الجنة!»

ثم يحملونه على ظهر ناقة إلى مكان فيه نمارق مصفوفة، وزرابي مبثوثة، وما لذَّ من الطعام، والمياه الجارية، وفي الصباح يجد نفسه في فراشه.

وفي يوم من الأيام انتبه الغجدواني رحمه الله بفراسته إلى حال المريد، فذهب إليه ليسأل عنه، فروى المريد ما يحدث معه، وبعد أن سمع الغجدواني كلامه أوصاه قائلاً:

«إذا رأيت نفسك في هذه الرؤيا مرة أخرى فقل ثلاث مرات: (لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم) ثم افتح عينيك!»

وفعل المريد ما طلبه شيخه منه في تلك الليلة، وفتح عينيه فرأى أنه بين عظام حيوانات ميتة، وفهم أن رؤياه كانت من الشيطان، ولزم شيخه وما عاد يفارقه بعدها[٦٥].

وفي يوم من الأيام ترك أحدُ الطلبة مجالس الولي الكبير أبي الحسن الشاذلي رحمه الله فرآه الولي يومًا وسأله:

«لماذا اعتزلتنا، ورغبت عن مجالسنا؟»

فأجابه الطالب: «يكفيني ما أخذت منكم وتعلمته إلى الآن، ولا حاجة للمجالس بعد اليوم».

فقال له الشيخ الشاذلي محذِّرًا:

«يا بُني، لو كان اكتفاء رجل بعلم وفيوضاتِ رجل آخر صحيحًا، لكان يكفي سيدَنا أبا بكَر العلمُ والفيوضات التي أخذها من رسول الله ﷺ، ولكنه لم يفارق الرسول ﷺ حتى وفاته».

وبالطبع لم يكن سيدنا أبو بكر رضي الله عنه هو وحده من لازم النبي ﷺ، بل كان الصحابة كلهم يهرعون بشوق إلى صحبة النبي ﷺ ويأخذون من علمه وفيضه، إذ كان

٦٥ مقامات عبد الخالق غجدواني وعارف ريوكري، ص١٤–١٥؛ حضرات القدس لبدر الدين السرهندي، جـ١، ورقة: ٨٣ ب، ٨٤ ب.

رسول الله ﷺ يحث أصحابه على ذلك بالوسائل كلها؛ لأن الصحبة كانت من أهم أصول التربية التي يتبعها الرسول ﷺ.

وثمة أمر آخر يجب أن يؤخذ بالحسبان إضافة إلى الشوق إلى محاسن الصحبة؛ وهو الاهتمام بزمان الصحبة ومكانها، فعن ابن مسعود رضي الله عنه قال: كان النبي ﷺ «يتخوَّلنا بالموعظة في الأيام، كراهة السآمة علينا»[٦٦]

وعن أبي واقد الليثي، أن رسول الله ﷺ بينما هو جالس في المسجد والناس معه إذ أقبل ثلاثة نفر، فأقبل اثنان إلى رسول الله ﷺ وذهب واحد، قال: فوقفا على رسول الله ﷺ، فأما أحدهما: فرأى فرجة في الحلقة فجلس فيها، وأما الآخر: فجلس خلفهم، وأما الثالث: فأدبر ذاهبًا، فلما فرغ رسول الله ﷺ قال: «ألا أخبركم عن النفر الثلاثة؟ أما أحدهم فأوى إلى الله فآواه الله، وأما الآخر فاستحيا فاستحيا الله منه، وأما الآخر فأعرض فأعرض الله عنه»[٦٧]

٦٦ البخاري، العلم، ١١.
٦٧ البخاري، العلم، ٨.

وقد أدرك علماء الإسلام الحكمة من هذا الحديث الشريف، فأخضعوا قلوبهم دائمًا لمجالس أولياء الله تعالى، ولم يمتنعوا أبدًا عن حضور مثل هذه المجالس، فكان الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله يذهب مرارًا وتكرارًا إلى بشر الحافي رحمه الله وهو من أولياء الله تعالى، ويجلس معه، وكان متعلقًا به غاية التعلق، وفي يوم من الأيام قال له طلبته:

«يا إمام، أنت من أنت في علوم الدين، ومع ذلك تذهب بين الحين والآخر إلى مثل هذا الرجل، فهل يليق ذلك بمقامك؟»

فأجابه الإمام: «نعم، إنني أفقه منه فيما ذكرتم، لكنه أعلم مني بالله عز وجل».

ونوجز ما ذكرنا من فوائد وفضائل مجالس الذكر والصحبة فيما يلي:

أ- **نزول السكينة وغشيان الرحمة**: هي الوقار وطمأنينة القلب وخشوعه وإنابته إلى الله عز وجل وتغشاهم الرحمة، أي :تحيط بهم من كل جانب فيكونون أقرب إلى رحمة الله عز وجل، قال تعالى:

﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ (الرعد، ٢٨)

وما أعظمها من طمأنينة و خشوع، فليراجع كل منا نفسه إن كان لا يطمئن ولا يرتاح قلبه عندما يحضر مجالس الذكر والصحبة.

ب- إحفاف الملائكة للجالسين في مجالس الذكر والصحبة: أي إن الملائكة تغطيهم من المكان الذي يجلسون فيه إلى السماء، و يالها من مكرمة من الله تعالى، فروي عن النبي ﷺ أنه قال:

«**...فيحفونهم بأجنحتهم إلى السماء الدنيا...**» [٦٨]

ج- إن الله تعالى يذكرهم في الملأ الأعلى ... فما أكرمها من نعمه و ثواب .... عن أبي هريرة وأبي سعيد الخدري رضي الله عنهما أنهما شهدا على النبي ﷺ أنه قال :

«**لا يقعد قوم يذكرون الله عز وجل ...، وذكرهم الله فيمن عنده**» [٦٩]

---

٦٨ البخاري، فضل ذكر الله، ٦٤٠٨.

٦٩ مسلم، تلاوة القرآن، ٣٩/ ٢٧٠٠.

د – **أن الله تعالى يباهي بهم الملائكة** ... فعن رسول الله ﷺ أنه خرج على حلقة من أصحابه يوما، فقال: «**ما أجلسكم؟**» قالوا: جلسنا نذكر الله ونحمده على ما هدانا للإسلام، ومَنَّ به علينا، قال: «**آلله ما أجلسكم إلا ذاك؟**» قالوا: والله ما أجلسنا إلا ذاك، قال:

«**أما إني لم أستحلفكم تهمة لكم، ولكنه أتاني جبريل فأخبرني، أن الله عز وجل يباهي بكم الملائكة**»[٧٠]

قال الإمام النووي رحمه الله تعالى:

«قوله "إن الله يباهي بكم الملائكة" معناه يُظهر فضلكم لهم، ويُريهم حسن عملكم، ويُثني عليكم عندهم، وأصل البهاء الحسن والجمال، وفلان يباهي بماله وأهله، أي: يفتخر ويتجمل بهم على غيرهم ويظهر حسنهم.

هـ– **مغفرة الذنوب وتبديل السيئات حسنات**.... انظر كيف أن الله تعالى رحيم بعباده، فكم يعصونه ويقترفون من السيئات، وفي دقائق أو ثوان تتبدل سيئاتهم حسنات! فقد قال رسول الله ﷺ:

---

٧٠ مسلم، تلاوة القرآن، ٤٠/ ٢٧٠١.

«... رب فيهم فلان عبد خطاء، إنما مر فجلس معهم، قال: فيقول: وله غفرت هم القوم لا يشقى بهم جليسهم»[٧١]

وقوله ﷺ: **«ما جلس قوم مجلسا يذكرون الله ﷻ فيه، فيقومون حتى يقال لهم قوموا، قد غفر الله لكم ذنوبكم، وبدلت سيئاتكم حسنات»**[٧٢]

- **آداب مجالس الذكر والصحبة:**

أحبّ أن أذكر بعض الآداب والصفات التي لابدّ أن نسلكها وأن نتحلّى بها في مجالس العلم والذكر، ومنها ما هو خاص بالمتحدث ومنها ما هو خاص بالحاضرين، نذكر هنا بعضها:

أ- آداب المتحدث:

- **الإخلاص**: الإخلاص نسيان رؤية الخلق بدوام النظر إلى الحق، ويجب أن يكون القلبُ مفعماً بالإخلاص لله ﷻ. يقول النبي الكريم ﷺ:

«إنما الأعمال بالنية، وإنما لكل امرئ ما نوى...»[٧٣]

---

٧١ مسلم، فضل مجالس الذكر، ٢٥/ ٢٦٨٩

٧٢ المعجم الكبير للطبراني، ٦، ٢١٢.

٧٣ مسلم، الصلاة على النبي، ١٥٥/ ١٩٠٧.

- **الصدق**: هو قول الحق الذي يواطئ فيه اللسانُ القلبَ، وهو أيضاً: القول المطابق للواقع والحقيقة من حيث اللغة. ولهذا الصدق من أهم صفات الداعية، وفضيلة من فضائل سلوكه ذات النفع العظيم، قال رسول الله ﷺ:

«**عليكم بالصدق، فإن الصدق يهدي إلى البر،...**»[٧٤]

- **الصبر**: الصبر خلق رفيع جليل وهو خلق مهم بالنسبة للداعية عليه أن يتحلى به فالدعوة إلى الله ﷻ بحاجة الى هذا الخلق، وإلى مخاطبة الناس بالحكمة والموعظة الحسنة والصبر على أذاهم. قال الله ﷻ:

﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اصْبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ وَاتَّقُواْ اللّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ**﴾ (آل عمران، ٢٠٠)

- **لين القول**: لين القول وحسن الموعظة، والاستعانة على هذا وذاك بضرب المثل من أبلغ وسائل التذكير التي اعتمد عليها القرآن في نصح البشر، فبالقول الليّن وصى الله ﷻ نبيه موسى وأخاه هارون عليهما السلام في دعوة فرعون إلى الإيمان:

﴿**فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَّيِّنًا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى**﴾ (طه، ٤٤)

---

٧٤ مسلم، الصدق، ١٠٥/ ٢٦٠٧.

- **الكرم**: الإسلام دين يقوم على الكرم والعطاء؛ لذلك وصف الله ﷺ نبيَّه بالكرم والجود، فقال تعالى:

﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ﴾ (الحاقة، ٤٠)

فوصفه الله تعالى بالكرم دون غيره من أخلاقه العظيمة؛ لأن كل تلك الأخلاق مندرجة فيه، فأخلاقه كلها عظيمة كريمة، قائمة على الكرم والبذل والسخاء، وهو ما كان معروفًا به من قبل أن يأتيه وحي السماء.

- **التواضع**: إن مما دعا إليه ديننا الحنيف التواضع. فقد أمر الله عز وجل به نبيه الأمين ﷺ، وأمر به أمته من بعده، وأعلمهم أن التواضع مما يقرب إليه ويدني العبد من رحمته، قال تعالى:

﴿...وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾

(الشعراء، ٢١٥)

وقال رسول الله ﷺ:

«وإن الله أوحى إلي أن تواضعوا حتى لا يفخر أحد على أحد، ولا يبغي أحد على أحد» [٧٥]

---

٧٥ مسلم، التواضع، ٦٤/ ٢٨٦٥.

- **بشاشة الوجه**: بشاشة الوجه أجود من سخاء الكف، والبسمة هي الطريق إلى قلوب الآخرين، ولا بد من روح الدعابة المضبوطة، التي لا تخرج المرشد عن حد الاعتدال أو تؤثر على وقاره بين الناس، قال رسول الله ﷺ:

«إنكم لن تسعوا الناس بأموالكم ولكن يسعهم منكم بسط الوجه وحسن الخلق» [٧٦]

وقال أبو حاتم: «البَشَاشَة إدام العلماء، وسجيَّة الحكماء.»

- **سعة الصدر**: إن سعة الصدر من أهم الصفات التي يتحلى بها المرشد، ويجب أن تكون سجية وسمة أساسية في شخصيته وسلوكه، هذه الصفة التي تأخذ بصاحبها إلى أعلى الدرجات في ميادين القرب من الله ﷻ، وتجعل صاحبها دائماً يضئ بنور الإيمان الصادق والعلم الصالح والخلق الحسن والقول السديد.

- **العرفان**: العرفان في الاصطلاح هو المعرفة الحاصلة عن طريق المشاهدات القلبية، لا بواسطة العقل ولا التجربة الحسّية... وهذا اللون من المعرفة

٧٦ مسند البزاز، البحر الزجار، جـ ١٦، ص١٩٣، ٩٣١٩.

يحصل في ظلّ العمل المخلص بأحكام الدين، والعرفان العملي عبارة عن العلم بطريق السير والسلوك، من أين يبدأ، وإلى أين ينتهي، وما هي المنازل والمقامات التي يجب أن يسلكها العارف للوصول إلى الله تعالى، وكيفيّة مجاهدة النفس للتغلّب على ميولها وتحريرها من علائقها، حتى تستطيع طيّ المراحل وتجدّ في سيرها إلى الله تعالى.

- **الفراسة والبصيرة:** البصيرة والفراسة من أهم الصفات التي ينبغي أن يتحلى بها المرشد، يقول الله تعالى:

﴿**قُلْ هذِهِ سَبِيلِي أَدْعُوا إِلَى اللَّهِ عَلى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحانَ اللَّهِ وَما أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ**﴾ (يوسف، ١٠٨)

فمن دعا إلى الله تعالى على بصيرة فقد دعا إلى الله تعالى وهو عالم به.

ب- **آداب الحاضرين**، ومنها:

- **النية الصادقة:** أمرٌ لا تُنال هذه العطايا والأجور إلا به، ألا وهو أن تبتغي بجلوسك في هذه المجالس وجه الله عزّ وجلّ.

- **الإنصات للمتحدث:** بأن تحسن الاستماع للمتحدث، وأن تحرص على حضور الذهن والقلب أثناء الشرح، وأن تصغي له بكل جوارحك، وأن تستأذن قبل الحديث، وألا تقاطع زميلك وألا تحدث من بجوارك أثناء الشرح، يقول الله تعالى:

﴿وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنْصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَى قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ﴾ (الأحقاف، ٢٩)

- **التفسح في المجالس:** قوله سبحانه وتعالى:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا فِي الْمَجَالِسِ فَافْسَحُوا يَفْسَحِ اللَّهُ لَكُمْ...﴾ (المجادلة، ١١)

هذا تأديب من الله ﷻ لعباده المؤمنين، إذا اجتمعوا في مجلس واحتاج بعضهم أو بعض القادمين عليهم للتفسح له في المجلس، فإن من الأدب أن يفسحوا له.

- **احترام الكبير في المجلس:** فعن ابن عباس رضي الله عنهما، عن النبي ﷺ قال:

«ليس منا من لم يوقر الكبير...»[٧٧]

فإكرام الكبير وتقديمه فى الكلام وجميع الأمور من أدب الإسلام ومعالي الأخلاق ...

- **المداومة على الصحبة**: فالعزيمة الصادقة، والثبات عليها، تعين على الاستمرار والمداومة على الصحبة، وقد كان من دعائه ﷺ:

«اللهم إني أسألك الثبات في الأمر، والعزيمة على الرشد»[٧٨]

إنَّ كمال العبد بالعزيمة والثبات، فمن لم يكن له عزيمة فهو ناقص، ومن كانت له عزيمة ولكن لا ثبات له عليها فهو ناقص، فإذا انضم الثبات إلى العزيمة أثمر كل مقام شريف، وحال كامل.

- **مراعاة الوقت**: إن الالتزام بالمواعيد المحددة، صفة من صفات الأنبياء والمرسلين، وخُلق من أخلاق العلماء والمرشدين، فالالتزام بالمواعيد يحفظ الأوقات من الضياع، فتحصل المصالح، وتعم الفائدة، فلا بد من

---

٧٧ مسند أحمد بن حنبل، ٤، ١٤٠.

٧٨ مسند أحمد بن حنبل، ٢٨، ٣٣٨.

أدب الالتزام بالمواعيد المحددة وعدم التخلف عنها إلا بعذر قاهر مقبول، ولقد مدح الله تعالى نبياً كريماً بالصدق في الوعد، والالتزام به، فقال عَزَّ وَجَلَّ:

﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولاً نَبِيّاً﴾ (مريم،٤٥)

- عدم إحداث شغب أو ضجيج في المجلس:

يقول الإمام الشافعي رحمه الله تعالى: «كنت أصفح الورقة بين يدي الإمام مالك صفحاً رفيقاً لئلا يسمع وقعها»

وقال الربيع تلميذ الشافعي: «واللّه ما اجترأت أن أشرب الماء والشافعي ينظر» وكان هذا احتراماً وتوقيراً وتبجيلاً للأستاذ المعلم.



الركن الرابع

الخدمة

أساس الخدمة هو التوجه إلى عباد الله بقلب يملؤه الإخلاص، وجوارح تملؤها الرحمة، وروح يملؤها الإيثار، وتلك هي معايير قبول الخدمة ولوازم رضا الله تعالى، وينبغي على أهل الخدمة أن يكونوا مرهفي الإحساس في معاملتهم للناس الذين يخدمونهم، وأن يكونوا شديدي الحرص كطبيب يعمل بمبضعه في جسدٍ مليء بالأوردة والشرايين، فأي خطأ بسيط قد يصيب ذلك الجسد بمكروه؛ فالذي يقدم الخدمة ينبغي أن يكون أشد حرصًا من ذلك الطبيب، لأنه يخاطب قلوب الناس، والقلوب هي محل نظر الله تعالى.

٤. الركن الرابع: الخدمة

إن للخدمة في التربية الصوفية أهمية عظيمة، وهي من أكثر الطرق تأثيرًا في غرس التواضع وانكار الذات والرأفة بالمخلوقات في القلوب، ومن هذا المنطلق كانت الخدمة وسيلة مهمة للمرشد الكامل في تربيته للسالكين، وكان الشيخ عبيد الله أحرار *رحمه الله* يقول:

«كان شيوخنا يَشغَلون مَنْ يأنسون فيهم الخير من المريدين بالخدمة»[٧٩].

وكما أن التوجه إلى الله تعالى بالمحبة والإخلاص هو أساس الأخلاق في الإسلام، فإن الدليل عليها هو «الخدمة»، فالخدمة هي خطوة أساسية في طريق بلوغ القلب مرضاة الله ﷻ.

٧٩ الكشمي، نسمات القدس، ص٢٤٤.

وهو ما يعبر عنه الشعار الصوفي:

«من يخدم الناس تعلو همته».

وهي الخطوة التي بدأ منها جميع من نال الوصال مع الله تعالى من الأنبياء والأولياء، ثم ارتقوا بعدها إلى مراتب الكمال.

فقد كان الأنبياء -عليهم السلام- قدوةَ البشرية في تقديم الخدمة للناس، وتبعهم الأولياء والمؤمنون في ذلك الطريق، فكانت حياتهم وسلوكياتهم موقوفة لخدمة الناس، وحوَّلوا هذه الخدمات إلى أصقاع الدنيا، وسطروا أجمل الصفحات في تاريخ البشرية.

فكانوا طوال عمرهم مثالاً واقعيًا لحديث النبي ﷺ الذي يقول فيه: «**سيد القوم خادمهم**»[٨٠].

والسيادة هنا هي صنو السعادة، والخدمة هي طريقها، والإخلاص حقيقتها، والولاء وسيلتها، وقد أمدتنا السُنة المطهرة بنماذج جعلت الخدمة -ولو كانت صغيرة- عند الله تعالى أعظم درجة من النافلة.

---

٨٠ البيهقي، الشعب، جـ١، ٣٣٤؛ جـ٦، ٣٣٤؛ الديلمي، مسند، جـ٢، ٣٢٤؛ علي المتقي، الكنز، رقم: ٢٤٨٣٤.

فقد كان النبي ﷺ قدوة في الخدمة، خدمة الصغير والكبير، والقوى والضعيف، والمرأة والطفل والشيخ، وكل محتاج؛ بل كانت حياته ﷺ كلها خدمة للبشرية ومخلوقات الله تعالى.

فها هو العاتق الشريف يحمل الحجارة في بناء المسجد، وها هي الأيدي الكريمة تشارك في حفر الخندق مثل بقية المشاركين؛ بل أكثر، ويأتي الصحب الكرام ليكفوه المؤونة، ويكفُّوه عن العمل، فيأبى إلا المعاونة والمشاركة كأي فرد فيهم، بركةً وتواضعًا وخدمةً وقدوةً.

فعن أنس رضي الله عنه قال: كنا مع النبي ﷺ في السفر، فمنا الصائم ومنا المفطر، قال: فنزلنا منزلاً في يوم حار، أكثرنا ظلاً صاحب الكساء، ومنا مَنْ يتقي الشمس بيده، قال: فسقط الصُّوَّام، وقام المفطرون، فضربوا الأبنية وسقوا الركاب، فقال رسول الله ﷺ:

«**ذهب المفطرون اليوم بالأجر**»[٨١]

ويقول النبي ﷺ في أحاديث أخرى:

---

٨١ مسلم، الصيام، ١٠٠-١٠١.

«المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يسلمه، ومَنْ كان في حاجة أخيه كان الله في حاجته، ومَنْ فرج عن مسلم كربة، فرج الله عنه كربة من كربات يوم القيامة، ومَنْ ستر مسلمًا ستره الله يوم القيامة»[٨٢]

«مَنْ مشى في حاجة أخيه كان خيرًا له من اعتكافه عشر سنين، ومَنْ اعتكف يومًا ابتغاء وجه الله جعل الله بينه وبين النار ثلاثة خنادق كل خندق أبعد مما بين الخافقين»[٨٣]

وكان رسول الله ﷺ يعمل في مقدمة الصحابة بكل تواضع حين يكون العمل لوجه الله تعالى، فمع أنه كان سيد الخلق أجمعين إلا أنه عند بناء المسجد النبوي كان يشاركهم في حمل الطوب.[٨٤]

وعن البراء بن عازب رضي الله عنه قال:

«كان النبي ﷺ ينقل معنا التراب يوم الأحزاب، ولقد رأيته وارى الترابُ بياض بطنه»[٨٥]

---

٨٢ البخاري، المظالم، ٣؛ مسلم، البر، ٥٨.

٨٣ الهيثمي، جـ٨، ١٩٢؛ البيهقي، الشعب، جـ٥، ٤٣٥-٤٣٦.

٨٤ انظر: البخاري، مناقب الأنصار، ٤٥.

٨٥ البخاري، المغازي، ٢٩؛ الجهاد، ٣٤.

وعن أبي الزبير، أن جابر بن عبد الله ﵁حدثهم:

«كان رسول الله ﷺ يتخلف في المسير فيُزجي الضعيف، ويُردف ويدعو لهم»[٨٦]

وعلى منهاج النبي ﷺ سار الصحابة رضوان الله عليهم في الخدمة والبذل والإيثار، وكانوا في العطاء كالبحر الفياض، وكانت سيرتهم في الحياة كسيرة النهر الجاري من منبعه النبوي عبر العصور والدهور، يسقي في طريقه البلاد والعباد والأحياء، ولا يضن على أحد حتى الجماد، حتى يصب في بحر المحبة والوصال بالمولى ﷻ.

ومَنْ يألف هذه الحقيقة، يرى نفسه خادمًا للناس حتى لو كان سلطانًا عليهم، وخير مثال على ذلك هو السلطان العثماني ياووز سليم خان، فحين صارت البلاد الحجازية المباركة أمانة في عنقه، ونودي في خطبة الجمعة باسم «حاكم الحرمين الشريفَين»، اعترض على ذلك وعيناه تذرفان الدموع؛ وقال مصححًا:

---

٨٦ أبو داوود، الجهاد، ٩٤/ ٢٦٣٩.

«لا، بل خادم الحرمين الشريفَين»، وكان ذلك مظهرًا من مظاهر فهمه الدقيق لمعنى الخدمة والغاية الأساسية للعبودية.

وكان عبيد الله أحرار رحمه الله ينسب المرتبة التي وصل إليها لبركة الخدمة، ويقول من باب الشكر على النعمة والاعتراف بها:

«إنني لم أتعلم هذا الطريق من كتب الصوفية، بل من خدمتي للناس كافة، إن الخدمة فضيلة من الفضائل الكبرى، فلقد حملوا كل فرد من طريق مختلف، وحملونا من طريق الخدمة، لهذا السبب؛ الخدمة عندي أصل أرضى عنه وأفضِّله على غيره، وهي مِن أحبِّ الأصول، وأوصي بالخدمة مَنْ أراه مستعدًا للروحانية والكمال وقادرًا عليها»[87].

ويوضِّح هذا الكلام في الوقت ذاته أن العلم وحده لا يكفي، بل لا بُدَّ من تطبيق ما تعلَمه في الخدمة.

ويلخِّص أحمد الكاساني رحمه الله في كلامه أهمية تقديم الخدمة بقلب ناضج واعٍ فيقول:

---

٨٧ رشحات، ص٤٢٦-٤٢٧.

«الدنيا مكان للخدمة، والآخرة للقربة؛ أي الاقتراب من الله تعالى، واقتراب المرء من الله تعالى منوط بنسبة الخدمة في الدنيا»[88].

لهذا السبب يجب على المرء أن يأخذ بوصية الشيخ يوسف الهمداني *رحمه الله* الذي يقول:

«أغلق باب الأنانية، وافتح باب الخدمة والصحبة!»[89]

وكان والدي الشيخ موسى *رحمه الله* يعطي أهمية كبيرة للخدمة ويقول:

«يجب السير في طريق الخدمة بالصدق، ويجب على كل فرد –بحسب الزمان الذي يعيش فيه– أن يقدِّم الخدمة للمؤمنين بل للمخلوقات كلها بمقدار استعداده وقدرته على ذلك!»[90]

«يجب على كل مسلم صاحب عقل سليم –بعد أن يجتنب الحرام ويؤدي الفرائض التي عليه– أن

---

٨٨ آداب السالكين، ورقة: ٥٣ب- ٥٤أ.

٨٩ آداب السالكين، ورقة: ٥٧ب، ٦٢أ.

٩٠ انظر: Altinoluk، عدد: ١٦٢، ص٦، آب/ أغسطس ١٩٩٩؛ Altinoluk sohbetleri، ١، ٥٢- ٥٣؛ ٣، ٢١٠.

يكون فعَّالًا بأن يقدِّم الخدمات للمسلمين ولمجتمعه وللمخلوقات جميعًا، ولا يمكن لـمَنْ لا يخدم الناس ببدنه وفكره وماله ابتغاء وجه الله تعالى أن يكون مؤمنًا كاملاً؛ لأن هذا مكمِّلٌ للفرائض وجزءٌ من سُنة رسول الله ﷺ»[٩١].

ولقبول هذه الخدمة -شأنها شأن كل عمل- ينبغي أن يملأها الإخلاص، كما يقتضي قبولها أيضًا أن تكون متوجهة إلى الله سعيًا لرضاه سبحانه، ومتوجهة إلى عباد الله تعالى بقلوب مِلؤها الرحمة والإيثار، بعيدة عن كل الأغراض النفسانية، لا يشغلها سوى رضا الله تعالى والفوز بجنته، والنجاة من عذابه.

وقد يكون من وسائل هذه النجاة «شق تمرة»[٩٢] تقدمها إلى محتاج فتقيه من الجوع، ويقيك الله تعالى بها من النار، كما جاء في حديث النبي ﷺ.

ويروي لنا الشيخ عبيد الله أحرار *رحمه الله* هذه الحادثة، فيقول: كنت في يوم من الأيام أمشي في السوق، فجاءني

٩١ Altinoluk sohbetleri، ٣، ٢٢٠.

٩٢ البخاري، الزكاة، ١٠؛ التوحيد، ٣٦؛ مسلم، الزكاة، ٦٦-٧٠.

رجل وقال:

«إنني جائع، هلَّا أطعمتني لوجه الله تعالى!»

ولم تكن لي قدرة على إطعامه في ذلك الوقت، وكانت معي عمامة قديمة، فذهبنا إلى دكان أحد الطباخين، وقلت للطبَّاخ:

«خذ عمامتي هذه، هي قديمة ولكنها نظيفة، يمكنك أن تجفف فيها الأطباق، لكن أريد منك أن تطعم هذا الجائع مقابل ذلك، فهل ترضى بذلك؟»

فأعطى الطبَّاخُ الطعامَ للفقير، وأراد إرجاع عمامتي لي، لكنني لم أقبل مع كل إصراره، ثم انتظرت ذلك الجائع حتى ينتهي من طعامه مع أنني كنت جائعًا مثله أيضًا.[٩٣]

وثم تتبدل الأحوال المادية للشيخ، ولا تتبدل الأحوال المعنوية، فيتحول فقره المدقع إلى ثراء واسع؛ لكن حبه للخدمة لا يتبدل، ولا يزداد الشيخ إلا إيثارًا، ولا تغره الدنيا التي منحته حقولاً يعمل فيها الآلاف من العمال، ومع اتساع غناه وطَوْلِه تتسع دائرة عطائه وخدمته، ويصف جانبًا من ذلك بقوله: «لقد أخذت على عاتقي

٩٣ رشحات، ص٤١٩.

رعاية بعض المرضى في مدرسة مولانا قطب الدين في سمرقند، وكان هؤلاء المرضى يوسِّخون السُرر حين يزداد مرضهم، فكنت أغسل ثيابهم بيديَّ وألبسهم إياها، فأصبت ذات يوم بمرضهم بسبب خدمتي المستمرة لهم، وصرت طريح الفراش، ولكن على الرغم من هذه الحالة التي صرت إليها، داومت على جلب الماء بالقِراب للمرضى، وتنظيف سُررهم، وغسل ثيابهم»[٩٤].

وكان رحمه الله يقدم هذه الخدمة لكل الناس بلا تفرقة أو تمييز، لمَنْ يعرف ولمن لا يعرف، ثم ينسلُّ منسحبًا في هدوء كي لا يفسد أحدٌ عليه خدمته بأي مقابل.

وثمة أدب آخر من آداب الخدمة يحدثنا عنه الشيخ موسى رحمه الله فيقول:

«يجب على العبد أن يرتقي في أخلاقه ومعاملاته طالما أنه يشتغل بخدمة الآخرين، وعليه أن يسعى لتوجيه قلبه لربه جَلَّ جَلَالُهُ توجيهًا يليق بكماله، ويؤدي العبودية للحق تعالى على أكمل وجه؛ هذه العبودية القائمة على الإخلاص والأدب والتواضع، وإن لم

---

٩٤ المسموعات لمير عبد الأول، ص٣٢-٣٣؛ رشحات، ص٤٢٥.

يكن الحال كذلك، فإن أهل الخدمة الذين لا يجدون في أنفسهم الروحانية وكمال الأخلاق والأصول، إن لم يرتقوا إلى الدرجات العليا، فإن خدماتهم تفسد الروحانية ويُحرمون من نصرة المولى ﷻ بسبب ضعف نيتهم»[٩٥].

وغير ذلك من الآداب المتعلقة بالخدمة والإنفاق التي نجد نماذج راقية منها في حياة وسلوك أهل العلم والدين والولاية، فقد أدرك هؤلاء أن شكرهم لنعمة الله تعالى عليهم لا يكون إلا بإفاضة هذه النعمة على عباد الله تعالى جميعًا، وجعلهم شركاء لهم فيما أنعم الله تعالى عليهم، ويتأتى ذلك عبر حفاظهم على دوام الترقي في المراتب، ودوام الحفاظ على الرقي المعنوي إلى معالي الأخلاق والروحانيات، فلا تزيدهم التقوى إلا أدبًا، ولا يزيدهم الغنى إلا زهدًا، ولا يزيدهم الرقي إلا تواضعًا.

ومن المراتب صعبة الوصول في الخدمة ما سنراه في القصة التالية للشيخ معروف الكرخي وهو من كبار

---

٩٥ صادق دانا، مجالس الميزاب الذهبي، جـ٢، ٢٣٧.

أولياء الله تعالى:

فقد حلَّ رجل مريض طاعن في السن ضيفًا على الشيخ معروف الكرخي، وكان مسكينًا لا حيلة له؛ قد تساقط شعره وشحُب لونه، وكأنه يلفظ أنفاسه الأخيرة، فجهَّز له الشيخ الكرخي سريرًا ليستريح عليه.

كان المريض يعاني كثيرًا من مرضه ويئن ويصرخ بصوت عالٍ، واستمر على هذه الحال طوال الليل حتى الصباح، فما استطاع لا هو ولا مَنْ كان معه في البيت أن ينام بسبب ألمه وصراخه، وفوق ذلك كله؛ ازداد طبعُه سوءًا وبدأ بإزعاج الآخرين وذلك بعتابه الشديد عليهم، وفي نهاية المطاف بدأ من كان في البيت بالمغادرة لأنهم لم يستطيعوا تحمُّل كلامه الفظِّ وسلوكه السيئ، ولم يبقَ مع المريض سوى معروف الكرخي وزوجته.

ولم يكن معروفٌ الكرخي ينام في الليل، بل كان يلبي حاجات هذا المريض سيئ المزاج، ويحاول جاهدًا خدمته، وفي يوم من الأيام غلبه النعاس، فنام دون قصد، وحين رأى هذا المريضُ الغافل الكرخيَّ الذي كان يرعاه برأفة ورحمة نائمًا، بدأ بمعاتبته ولومه بدل أن يشكره،

وقال:

«أي نوع من الدراويش هذا! إن مثل هؤلاء لهم سمعة في الظاهر فقط، أما في الحقيقة فهم في قمة الرياء، وكل عمل من أعمالهم من أجل هوى أنفسهم، ظاهرهم طهارة وباطنهم قذارة، يأمرون الناس بالتقوى وينسون أنفسهم، ولهذا ينام هذا الرجل هنا ولا يفكر في حالتي، وكيف لمثل هذا الذي أشبع بطنه ونام أن يعلم حالة مريض لا حيلة له ولا يدخل النوم إلى عينيه حتى الصباح!»

أما معروف الكرخي فقد كان يسمع هذا الكلام المرير الذي يرميه الرجل به لكنه يصبر عليه ويحتمل، وكأنه لم يسمعه، لكن زوجته ما استطاعت أن تصبر وتتحمل أكثر، فقالت لزوجها بصوت خافت:

«لقد سمعتَ ما يقوله سيئ الطباع هذا، ليس علينا أن نؤويه بعد اليوم، ولن نسمح له بأن يحمِّلنا معاناته ويقابلك بالجفاء، أخبره أن يغادر هذا المكان وليعتنِ بنفسه لوحده، فالخير يُقدَّم لـمَـنْ يقدِّرُه، ومن السوء الإحسان لـمَنْ ينكر عليك إحسانك، فهذا يجعلهم

يتمادون أكثر، ولا يجوز أن توضع وسادة تحت رأس هذا الدنيء، بل لا بد أن يوضع رأس الظالمين على حجر».

وكان معروف الكرخي يستمع بهدوء إلى كلام زوجته، ثم قال لها وهو يبتسم:

«يا امرأة، لماذا يغضبك كلام هذا الرجل؟ فإنه إذا صرخ كان صراخه عليَّ، وإذا أساء الأدب فهو يوجه كلامه إليَّ، وكلمات هذا الرجل التي تبدو مُستقبحة تُسعدني، ألا ترين أنه في حالة اضطراب وألم! ألا ترين أنه لا ينام ولو للحظة! فلتعلمي أن الرأفة والرحمة في معناها الحقيقي هي أن تتحملي جفاء مثل هؤلاء».

ويقدم الشيخ سعدي الذي نقل هذه القصة نصائحَه لنا فيقول:

«إن الفضيلة في الخدمة هي تحمل الضعفاء شكرًا لكونك قويًا تتمتع بصحة جيدة».

«إن القلب العفو هو ذلك القلب المليء بالمحبة، وإذا ما كنت شخصًا فظًّا غليظ القلب، فإن ذكرك سيموت مع موت جسدك، أما إن كنت من أهل الخدمة والخير والكرم، فإن ذكرك سيدوم بعد موتك بمقدار تضحيتك

وأثرك في قلوب الناس، ألا ترى القبور الكثيرة في الكرخ! ألا ترى أنه لا توجد قبور معروفة يزورها الناس هناك سوى قبر معروف الكرخي!»

ومن العبارات الجميلة التي نطق بها أهل الدين والعلم قولهم: «التصوف أن تكون محبوبًا لا حِملاً على الآخرين» أي أن تتحمل كل فرد في المجتمع، وألا تكون حِملاً على أحد.

إن أبواب الرحمة تُفتح للأمة عبر خدمات التضحية والإيثار، وقيمة الخدمة منوطة بعظم التضحية في أدائها، وبتقديمها كأنها عبادة من العبادات المفروضة، والخدمة المقبولة عند الله تعالى هي تلك الموجهة لنيل رضاه، والتي يؤديها العبد دون أن يجرح مشاعر مَنْ يتلقَّى هذه الخدمة، ويقول عبد الله بن الـمُنازل *رحمه الله*:

«الأدب في الخدمة أفضل وأعز من الخدمة ذاتها».

ويقول مولانا جلال الدين الرومي *رحمه الله* بناءً على هذه الحقيقة:

«اعمل واخدم الناس لوجه الله تعالى، إذ لا يضيرك قبل الناس عملك أو رفضوه، ألا يكفيك في سوق هذه

الدنيا أن يشتري منك الله تعالى كل بضاعتك وتصبح غنيًا بها؟ وكيف لك أن تقارن بين ما ستأخذه من الله تعالى وما يمكن للناس أن يعطوك إياه! لذلك وجِّه عينيك وقلبك إلى ما ستناله من فيوضات الله تعالى لا إلى عبارات الشكر من الناس!»

إذًا؛ هذا هو الجمال والسمو والرقي الذي أراد التصوف إيصال القلوب إليه، وكان من الوصايا التي تلقاها الشيخ بهاء الدين نقشبند *رحمه الله* من أستاذه كي يتخلَّص من ميوله النفسانية في داخله: «راقب القلوب وانتبه إليها، واعتنِ بأولئك الفقراء والضعفاء ومكسوري القلوب واخدمهم، وراعِ أولئك الذين يستصغرهم الناس وامدحهم وجاملهم، وأَظهر لهم التواضع والمحوية!».

كان الشيخ نقشبند *رحمه الله* في السنوات الأولى من انتسابه للطريقة يسعى للوصول إلى حالة «المحوية» التي هي عكس الغرور والتكبر، وفي سبيل ذلك عاش سبع سنوات لا يمكن لأي فرد أن يعيش مثلها، فقد كان يخدم المرضى والمعاقين والحيوانات الجريحة، وحتى إنه كان ينظِّف الطريق التي يمشي فيها الناس.

ويوضح بنفسه هذه الحالة التي عاشها فيقول:

«لقد عملت مدة طويلة كما أمرني أستاذي، وقدمت الخدمات كلها، ووصلت إلى حالة كنت فيها إذا ما صادفت أي مخلوق من مخلوقات الله تعالى أثناء سيري في الطريق، أقف وانتظر مروره، واستمر حالي على هذا المنوال طوال سبعة أعوام وأكرمني الله تعالى بعد هذه الخدمات بحال من الفيوضات الربانية التي لم أكن عليها من قبل، ففي إحدى الليالي صادفت كلبًا في طريقي، وأصابتني حالة لم أعهدها من قبل، فتوجهت إلى الله تعالى بالابتهال والتضرع، وبدأت بالبكاء الشديد، حينها استلقى هذا الحيوان المسكين على ظهره ونظر إلى السماء، ورفع أطرافه الأمامية، وبدأ بالأنين بحزن، فرفعت يديَّ، وبدأت بقول: (آمين) بقلب خاشع مكسور لله تعالى، واستمر هذا الحال إلى أن سكت هذا الحيوان وعاد إلى وضعه الطبيعي»[٩٦].

إن المثال السابق هو مظهر من مظاهر خدمة المخلوقات من أجل الخالق عبر النظر إليهم بعين الله تعالى الممتلئة بالمحبة.

٩٦ انظر: أنيس الطالبين، ص٤٩-٥٠؛ مقامات الشيخ نقشبند، ص١٧-١٨.

ويوضح الشيخ علاء الدين العطار خدمات أستاذه نقشبند قائلا: «كانت أخلاق أستاذنا الشيخ نقشبند أخلاقًا رفيعة سامية، فإذا ما زاره أحد في بيته، كان يخدم ضيفه بنفسه، ويكرمه خير إكرام، ويظهر ترحيبه به ورعايته له. وكان يعتني أيضًا بدابة الضيف اعتناءً شديدًا، فلا يعود الضيف مشغولاً بدابته»[٩٧].

ويقول الشيخ شادي وهو من مريدي الشيخ نقشبند:

«عندما كان يأتي صاحبٌ للشيخ نقشبند *رحمه الله* أو ضيف إلى داره، كان الشيخ يخدمه، ثم يقدم الماء والعلف لدابته، فقد كانت جميع الخدمات نعمةً بالنسبة إليه، وحتى لو أتى الدراويش الذين يربيهم إلى داره، كان يُعِدُّ لهم ما يلزم من أجل طهاراتهم ونظافتهم، ويقول: (إن هذه الخدمات كلها نعمة ومِنَّة بالنسبة إلي)، وإذا ما شرَّف شيخُنا دارَ مريدٍ من المريدين، كان يسأل عن أولاده وأقاربه وخدمه ودوابه وحتى دجاجاته، وكان يهتم بكل فرد من أفراد البيت ويجذب قلبه إليه»[٩٨].

---

٩٧ أنيس الطالبين، ص٧٠.

٩٨ أنيس الطالبين، ص٧١؛ الرسالة البهائية، ورقة: ٤٦ب، مقامات الشيخ نقشبند، ص٣٨.

وإذا ما طُبِخ طعام في مجلس، كان الشيخ نقشبند يقدِّم الطعام بيديه لـمَنْ طبخه وحضَّره.[99]

ويقول أحد طلبته:

«كان السبب في انتسابي للشيخ نقشبند وارتباطِ قلبي به هو الحادثة التالية:

في يوم من الأيام اجتمع الدراويش في بخارى -وكنت واحدًا منهم- ليعودوا الشيخ نقشبند في مرضه، والتقينا به في مكان يُسمى (باغي مزار)، كان الشيخ يلتقي بالدروايش بوجه مبتسم حتى في مرضه، ويذهب مباشرة ليحضر الشياه التي ستُذبح لهم، حتى إنه جاء حاملاً شاة على ظهره المبارك وانشغل بنفسه في طبخ الطعام، وإلى مثل هؤلاء من أولياء الله تعالى مال قلبي لما يتحلَّون به من أخلاق حميدة سامية»[100].

كان الشيخ نقشبند رحمه الله يسعى جاهدًا لحل مشكلات من حوله ويهتم بأمورهم، ولهذا كان يُطلق عليه اسم «الشيخ حلال المشكلات».

---

٩٩ أنيس الطالبين، ص١٩٨؛ مقامات الشيخ نقشبند، ص١٥٣.

١٠٠ أنيس الطالبين، ص١٤٥.

وكان الشيخ نقشبند رحمه الله يقول:

«إن أولياء الله تعالى يتحمَّلون الناس وأعباءهم من أجل تحسين أخلاقهم، والقلوب كلها تحت نظر الله تعالى دون استثناء، سواء أعلم صاحب القلب أم لم يعلم. ولهذا يتحمل الأولياء الناسَ كي ينالوا قلوبهم فتكون وسيلة لنيل الفيوضات من النظر الإلهي في تلك القلوب!» [١٠١]

ويقول الله تعالى واصفًا المؤمنين الصالحين:

﴿وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ﴾ (آل عمران، ١١٤)

ولعل أفضل الخدمات التي تحقق معاني الآية الكريمة هي الأوقاف، وما تذخر به من صور متنوعة وكثيرة تقدم الخدمات لكل المخلوقات، وبشتى السُبل التي تخفف عنها أعباء الحياة.

وتختلف الخدمات من وقف إلى آخر، وتختلف الجهود الخدمية من شخص إلى آخر، كما تختلف الظروف والاحتياجات والقدرات على البذل والعطاء

١٠١ ديوان مولانا خالد البغدادي، البيت: ١٣٦-١٣٧.

والخدمة، لكن الله تعالى يقدِّر ذلك كله وفق ما وهبه للإنسان من قدرة واستطاعة، ووفق ما يحمله قلب ذلك الإنسان من إخلاص وإيثار.

ولا ينسى التاريخ أبدًا موقف مئة وعشرين ألف صحابي في حجة الوداع حول النبي ﷺ، فسرعان ما تفرق هذه الجمع الكريم تفرق أشعة الشمس في دروب الكون عند شروقها، فما تركوا مكانًا يستطيعون بلوغه، إلا حملوا إليه النور والهداية والعلم والدين والبركة، خدمة لدين الله تعالى وخلقه.

وتَذْخَر بقاع الدنيا شرقًا وغربًا بمقابر الصحابة الكرام، فقبور أولاد سيدنا عثمان والعباس رضي الله عنهم في سمرقند، وغيرهم في الصين، وفي القسطنطينية، وأرجاء الجزيرة العربية، وأفريقيا، وآسيا.

فذلك الصحابي الجليل أبو أيوب الأنصاري رضي الله عنه -جار رسول الله ﷺ-، رغم تجاوزه الثمانين من عمره يصل مرتين إلى أسوار القسطنطينية مع جيوش الفتح ليحمل النور والخدمة والسعادة إلى الناس.

وذلك الصحابي وهب بن كبشة ﵁ مدفون في الصين[١٠٢]، وهي مسافة تحتاج إلى عام كامل من السفر والمسير، لكنه كان يؤدي الرسالة التي كلفه بها النبي ﷺ، فقام بها كما أُمر، ثم تجشم عناء العودة إلى المدينة في سنة أخرى شوقًا إلى الحبيب ﷺ، والذي وجده قد انتقل إلى جوار ربه، فعاود السفر الطويل مرة أخرى مكملاً المهمة المقدسة في الخدمة والتبليغ، وإنفاذ الأمر النبوي بحمل الرسالة إلى أقصى بقاع الأرض، وما زال عليها حتى لقي ربه في هذه البلاد البعيدة.

لقد كان الإيمان العميق لهذا الجيل العملاق من الصحابة هو الدافع والوازع الأقوى الذي حفزهم على تقديم الخدمة، من قلوبهم إلى البشرية كلها في كل مكان؛ بل في كل زمان عبر القوة المعنوية التي حملتها سيرتهم وقدوتهم.

١٠٢ يوجد مقام في مدينة غوانغهو الصينية يُنسب إلى سعد بن أبي وقاص ﵁. ومن إحدى حقائق التاريخ هي أن الأماكن التي توجد فيها قبور الصحابة الكرام وأولياء الله تكون غالبًا ذا تأثير في الحفاظ على الدين وإيمان الناس في تلك الأماكن، والأمثلة عن هذه كثيرة في آسيا الوسطى في مدن مثل سمرقند وبخارى وتركستان وطشقند.

ولا ريب أن الصحابة الكرام ﭬ قد وصلوا إلى هذه المرتبة العالية من خلال التزامهم بمبادئ الخدمة التسعة في ضوء تربية النبي ﷺ لهم؛ وهذه المبادئ هي:

١. خدمة الله تعالى: الالتزام بأوامره ونواهيه بكل صدق ومحبة.

٢. خدمة رسول الله ﷺ: الصدق في محبته، والعيش بمقتضى سُنته.

٣. خدمة أولياء الله: إظهار المحبة والوفاء والصدق لهم.

٤. خدمة الوالدين: الاجتهاد في نيل رضاهما وإطاعتهما دون أدنى تردد أو تذمر.

٥. خدمة الأولاد: حسن تربيتهم كي يكونوا مؤمنين صالحين.

٦. خدمة الأقارب: صلة الرحم والإحسان إليهم.

٧. خدمة المؤمنين: مشاركتهم أفراحهم وأتراحهم.

٨. خدمة الناس كلهم: السعي لفائدتهم بالقول والفعل.

٩. خدمة المخلوقات: النظر إلى المخلوقات بعين الرأفة.

وما أحسن قول الشيخ علي راميتني في هذه الخدمات والقيام بحقها:

«هناك الكثير ممَنْ يخدمون الناس وهم يمنون عليهم، وهناك الكثير ممَنْ يخدمون الناس وهم يمتنون لهم، وشتان بين الفريقين، لكن مَنْ ينال رضا الله تعالى هو الذي يؤدي الخدمة ويستشعر معها أنها نعمة من الله تعالى ينبغي عليه أن يقدم الشكر مع الخدمة، ولا يستشعر معها الشكوى». [١٠٣]

وفي خضم ذلك كله، هناك كنز مدفون في أعماق الروح لا يمكن استخراجه إلا عبر المشاعر الراقية التي يستشعرها المرء حين يقدم الخدمة للناس، هذا الكنز تبرز جواهره في السكينة والطمأنينة وسلامة الروح، وهي جواهر تتلألأ لكل مَنْ يخدم الخلق بإخلاص؛ سواء كان مدركًا لوجود هذا الكنز أم لا، لكن الذي يصل إليه سريعًا ويستمتع بذلك الأجر الرباني والسعادة الدنيوية والأخروية هو الذي يستشعر أن الخدمة عبادة من الفرائض يؤديها إلى الله تعالى -لا إلى الناس- بإخلاص ورضا.

١٠٣ رشحات، ص٩٠.

ويجد العبد نفسه سائرًا في طريق النجاة حين تستولي على قلبه الرغبة الصادقة في الخدمة؛ حيث تحتل مكان القسوة والفظاظة، فتطرد رقةُ «يونس أمره» من القلب قسوةَ «الحجاج الثقفي»، وحينها يسمو القلب ويسمو معه العقل والحس والشعور، وترتقي معهم العلوم والفنون والآداب والأخلاق.

حين ذلك يكون القلب قد وصل إلى النضج المعنوي، وأنتج هذه الروائع بعد أن قدم هذه الخدمات الحقيقية والمخلصة، ومثل هذه القلوب هي التي تكون «محل نظر الله تعالى».

ويالسعادة مَنْ تمتع قلبه بهذه المزايا بعد أن استمتع بإخلاص الخدمة، ويالخسران من حُرِم قلبه تلك الصفات المعنوية التي تحقق سعادة الدنيا والآخرة.

❁

- أخلاق المرشد الكامل وخدمته

كان الشيخ أحمد الرفاعي *رحمه الله* يلقي السلام على كل مَنْ يراه، وإذا ما سمع بمرض أحدهم في قرية أو بلدة، يعوده في أول فرصة تسنح له، وكان حين يلتقي

بأعمى في سفره يمسك بيده ويحمله إلى وجهته، وإذا صادف شيخًا أعانه على حِمْله ثم نصح أصحابه بحديث النبي ﷺ الذي يقول فيه:

«ما أكرم شابٌ شيخًا لسنِّه إلا قيض اللهُ له مَنْ يكرمه عند سنِّه»[١٠٤]

وأثناء عودته من سفره خارج المدينة كان يذهب إلى الغابة، فيحتطب ثم يحمل حطبه على دابته، ويعود إلى المدينة ليوزعه على الأرامل والعاجزين والفقراء والمحتاجين.

وكان يهرع إلى خدمة المُقعدين، فينظف ثيابهم، ويجالسهم، ويصحبهم، ويحمل إليهم الطعام فيُطْعِمُهم بيديه، ثم يطلب منهم أن يدعوا له، وكان يقول لمريديه:

«إنَّ زيارةَ مثل هؤلاء من العاجزين ليست مستحبة فحسب، بل واجبة».

وفي يوم من الأيام مرَّ على أطفال يلعبون، فهرب بعضهم خوفًا من هيبته، فركض الشيخ مباشرة خلفهم، واحتضنهم برأفة ومحبة كبيرة لينال محبة قلوبهم،

---

١٠٤ الترمذي، البر، ٧٥.

وخاطبهم قائلاً: «يا أولادي، إنكم ترون أنني عبد عاجز، فسامحوني إن أقلقتكم».

❀

- الأدب في الخدمة

يقول عبد الله روغندي:

«إياك أن تستصغر خدمة وُكِّلتَ بها؛ لأن الخدمة تبقى خدمةً، وقد تكون الخدمة التي تبدو لك غير ذات شأن شيئًا عظيمًا عند الله تعالى لأسباب متنوعة، وبما أننا نجهل الخدمة التي يرضى عنها المولى ﷻ، لذلك استمِرَّ في الخدمة بكل أنواعها، حتى تصل إلى مراد الله تعالى أي رضاه، ولتكن النعم والتجليات التي نلتَها وسيلةً لزيادة شكرك وخدمتك فقط».

الخلاصة:

الخدمة شعارُ المرشدين والمريدين من أهل التصوف، وهي أيضًا وسيلة ومنهج وسلوك، والغاية منها بلوغ رضا الله ﷯، فإذا فَقَدَتِ الخدمةُ أحدَ هذه المعاني والشروط والحدود؛ خرجت من مضمونها وانحرفت عن مسارها.

فعليك أن تخدم الناس -كل الناس- في كل الأوقات والأحيان والأحوال، في المنشط والمكره، للعظيم والحقير، فإذا اقتصرت خدمتك على أحدٍ ما، فقد قصدت بخدمتك هذا الأحد، ولم تقصد رضا الواحد الأحد.

وقد تلقى مثل هذه الأنواع من الخدمة ثناء الناس، لكنها تسقط من نظر رحمة الله تعالى عن العبد، وينزل عليه غضبه، فليست غاية الخدمة نيل النتائج التي تبهر عيون الناس في هذه الدنيا، بل عرض الأعمال والخدمات التي توصل العبد إلى الدرجات العليا في عالم الآخرة.

لذلك على السالك أن ينظر إلى كلِّ نوع من أنواع الخدمة على أنها غنيمة، فمن الممكن أن تخفي الخدمة -التي يستصغرها الناس- داخلَها ثوابًا إلهيًا لا تحدُّه السماوات والأرض، وقد يمتحن الله ﷻ ولاء العبد وإخلاصَه فيخفي الكثير من نعمه في قطرة، وينظر إلى القلوب أين تتجه.

- حالة القلب لدى فعل الخيرات

يروي الشيخ موسى أفندي رحمه الله الحادثة الآتية: كنَّا في سفر مع الشيخ سامي أفندي، وفي بلدة أورغوب أوقف رجل حافلتنا وطلب مالاً كي يشتري سجائر، ومع أن بعض المسافرين أبدوا معارضتهم بصمت، قال الشيخ سامي أفندي: «بعد أن طلب منَّا يجب علينا أن نعطيه»، فلبُّوا طلبه.

فسُرَّ الفقير بذلك وقال مبدِّلًا نيَّته: «يمكنني الآن أن أشتري خبزًا بهذا المال»، وابتعد عنهم.

العِبرة:

فقط عليك أن تخلص النية حين تعمل العمل، وتنظر إلى قلبك، ولا تنظر إلى مَنْ تقدم له خدمتك، إن السلوك والمعاملات حين تكون لرضا الله تعالى وحده، تؤثِّر في قلب الـمُخاطَب، وتُحسِّن أخلاقه، لذلك لا بُدَّ أن يتذكر الإنسان دائمًا أنَّ حالة قلبه أكثر أهمية من حالة قلب المحتاج أثناء فعل الخيرات.

فعن أبي هريرة رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال:

«قال رجل: لأتصدقن بصدقة، فخرج بصدقته، فوضعها في يد سارق، فأصبحوا يتحدثون: تُصُدِّق الليلة على سارق، فقال: اللّهم لك الحمد، لأتصدقن بصدقة، فخرج بصدقته فوضعها في يدي زانية، فأصبحوا يتحدثون: تُصدِّق الليلة على زانية، فقال: اللّهم لك الحمد، على زانية، لأتصدقن بصدقة، فخرج بصدقته فوضعها في يدي غني، فأصبحوا يتحدثون: تُصدِّق الليلة على غني، فقال: اللّهم لك الحمد، على سارق وعلى زانية وعلى غني، فأُتي فقيل له: أما صدقتُك على سارق فلعلَّه أن يستعف عن سرقته، وأما الزانية فلعلها أن تستعف عن زناها، وأما الغني فلعله يعتبر فينفق مما أعطاه الله».[١٠٥]

من أجل هذا كله، يجب على المتصدق أن يكون شاكرًا لربه؛ لأن تأثير الصدقة منوط بإخلاص المتصدق.

❁

١٠٥ البخاري، الزكاة، ١٤؛ مسلم، الزكاة، ٧٨.

- إدخال السرور في قلب اليتيم

يقول السري السقطي:

«رأيت معروفًا الكرخي في أحد أيام العيد يجمع نوى التمر في الطريق، فسألته عن سبب جمعه إياها، فقال:

(رأيت طفلاً صغيرًا يبكي، فسألته عن حاله، فأخبرني أنه يتيم يبكي لافتقاره إلى ثياب ودمى يتنعم بها كغيره من الأطفال، ثم بكى مرة أخرى، فأشفقت عليه؛ لذا أجمع نوى التمر كي أبيعها، وأشتري له بها ثيابًا ودمى).

فأشفقت أنا أيضًا على الصغير واكتوى قلبي لأجله، فرجوت الشيخ قائلاً:

(ائذن لي أن أهتم بهذا الطفل، ولا تشغل فؤادك به)، ثم أخذت الطفل ولبَّيت احتياجاته».

ويوضِّح السري السقطي الحالة التي وصل إليها ببركة هذا العمل الصالح بقوله:

«لقد دخل النور إلى قلبي ببركة هذه الخدمة، فصرت في حالة مختلفة كليًّا، وتذوقت اللذات الروحانية الكثيرة».[١٠٦]

---

١٠٦ انظر: الرسالة القشيرية، ١، ٤٥.

العِبرة من القصة:

إن إدخال السرور إلى قلب اليتيم ورعايته من أفضل الأعمال الصالحة التي كثيرًا ما حثَّ الإسلام عليها وجعل لها أجرًا عظيمًا جدًا، والوعد الذي أعطاه رسول الله ﷺ في الحديث الآتي يروق القلوب العاشقة:

«**كافل اليتيم له أو لغيره أنا وهو كهاتين في الجنة**»[١٠٧]، وأشار راوي الحديث مالك بن أنس بالسبابة والوسطى.

وفي حديث آخر يقول ﷺ:

«**مَنْ مسح رأس يتيم لم يمسحه إلا لله، كان له بكل شعرة مرت عليها يدُه حسنات**» (أحمد بن حنبل، مسند، جـ٥، ٢٥٠)

ويُقصد بالمسح في هذا الحديث الاهتمام بمسائل اليتيم كلها المادية والمعنوية.

١٠٧ مسلم، الزهد، ٤٢.

فهرس